ذكريات شموع الروضة (12)

آثار الراحلين

صفحات من سيرة الوالد الشيخ
محمد بن فالح بن عثمان الصغيّر رحمه الله
(1346- 1429هـ)

أ.د. صغيّر بن محمد الصغيّر

ذكريات شموع الروضة (١٢)

آثار الراحلين

صفحات من سيرة الوالد الشيخ محمد بن فالح بن عثمان الصغيّر رحمه الله

(١٣٤٦- ١٤٢٩هـ)

بسم الله والحمد لله وعلى بركة الله

ربِّ يسر وأعن وبارك يا كريم..

اللهم صل على محمد وآله وصحبه..

إلى الأبناء والأحفاد..

دونَكم شيئاً من آثار الراحلين رحمهم الله..

طوال سنين مضت، كنتُ أفرّ من الكتابة عن الوالد -رحمه الله- وكأن الحبر يخشى أن يلامس اسمه فيرتجف من الهيبة. لم يكن الصمت نسياناً لا والله...!!! بل عجزاً أمام مقامٍ لا تفي الكلمات حقه. كنت أظن أني أملك من البيان ما أصف به الرجال، حتى وقفتُ على حديث لبعضهم أثار في داخلي عاصفةَ الحنين، عندها أدركت أن السكوت لم يعد وفاءً، وأن الوقت قد حان لأفتح قلبي للورق، أدوّن بعضاً من أثره في حياتي، وأستعيد شيئاً من عبق أيامه التي لا تُنسى.

مضى عقدان من الزمن وأنا أمرّ بسواري الجامع الذي أدخله كل يوم، فإذا بها تهمس لي باسمه، وتعيد إلى روحي صوته الهادئ، وحكمته التي لا تُنسى.

هناك، بين تلك الجدران، ما زال عبير حضوره يسكن المكان، وكأنه لم يغب إلا جسدًا. لقد كان والدي علَمًا في علمه، حكيماً في رأيه، شجاعًا في مواقفه، صادقًا في أثره، حتى غدت قصصه ومواقفه منقوشة في ذاكرة من عرفه،

يروونها بمحبة وإجلال كلما ذُكر اسمه. وها أنا اليوم أكتب عنه، لا لأوفيه حقه، فذاك ما لا يُستطاع، بل لأُسكن بعض الحنين في سطورٍ تشهد أنه ما زال بيننا أثرًا لا يزول.

كلما مررتُ بمنزله في حيّنا بالملز في الرياض الذي لم أستطع الخروج منه، شدّني إليه شيء لا يُرى، وكأن أبوابه وجدرانه وسكك الحي وشوارعه ما زالت تحفظ صوته وهو يرحّب بالداخلين، أو وقع خطواته وهو يتفقد أحوال من حوله. وستشهد له روضةُ الجامع بإذن الله، تلك التي ما أشرقت فجرًا إلا وخُطاه تسبق المؤذّن إليها، يسعى إليها بقلبٍ معلّقٍ بالمساجد، كما وصف النبي ﷺ أحبّ الناس إلى الله. وسيشهد مصحفه الذي لازلت أحتفظ به وكأني أراه ويده تقلب صفحاته بخشوعٍ يورث السكينة، وطمأنينةٍ تُشعر من حوله أن أنفاسه تسبيحٌ لا ينقطع. ما كان يفوته ختم القرآن في أسبوع، بل كان يجد في تلاوته أنسه وسلوته، يقرأه بتدبّرٍ وخشيةٍ، كمن يخاطب ربَّه ويأنس بحديثه. رحمك الله

يا والدي، كم كنتَ قدوةً بالفعل قبل القول، فنسأل الله أن يجعل لك من كل حرفٍ قرأته نورًا في قبرك، ومن كل سجدةٍ رفعةً في درجاتك. لقد كانت روضة الجامع تعرف موضعه، والصفّ الأول يأنس بظله، وإذا غاب يومًا لمرضٍ أو عذرٍ، افتقده المصلّون وارتفعت له الدعوات في المحراب.

وستبقى شوارع الحي شاهدةً على تبكيره للصلاة، يمرّ فيها بخطواتٍ هادئةٍ مطمئنةٍ نحو بيت الله، كأنما الأرض تُبارك أثر قدميه، والملائكة تستقبله على بابه.

أقف أحيانًا أمام باب بيته الذي كان في الحي فلا أسمع سوى صدى صمته، وأرى في الخيال ابتسامته المشرقة تطلّ من خلف الباب كما كانت تفعل كلما عدت إليه. ذلك البيت لم يعد مجرد جدران، بل صار مزارًا للحنين، وسِجلًّا صامتًا لحكاياتٍ عاشها وأحاديثَ لا تزال تملأ أجواءه بالسكينة.

عذرًا إخواني وأخواتي، أعلم أن الحنين إلى الوالد إذا ذُكر ينكأ جروحا، وأن الأوجاع التي في الصدور تهتز كلما مرّ

اسمه على الأسماع، ولكن لا بد من إفراغه في سطورٍ ودموع. فالصمت لم يعد يحتمل، والذاكرة تضجّ بأحاديثه، ومواقفه، وابتسامته التي كانت تبعث الطمأنينة حتى في العواصف.

أكتب اليوم وقلبي يحدّث دموعكم قبل عقولكم، يا إخوتي ويا أبنائي وأحفاده الأحبة، كل حرفٍ هنا هو دمعة تكتب، وكل جملةٍ تنهيدةُ شوقٍ لوجهٍ غاب وبقي نوره بيننا. إن من عاشره لا ينسى حكمته، ولا يُمحى من الذاكرة صبره ورباطة جأشه، ولا من القلب حنانه الذي كان ملاذنا جميعًا.

إن ذكراه ليست ماضياً نرويه، بل حاضرٌ نعيشه في ملامحكم، في كلماتكم، في دعائكم له، وفي كل خُلُقٍ حسنٍ ورثناه عنه. رحمك الله يا والدي، كنت لنا سندًا في الحياة، وها نحن نقتات من أثرك بعد الرحيل، نعيش على ما غرسته فينا من إيمانٍ وثباتٍ وصدقٍ لا يزول.

لست أكتب مفاخرًا، وإن كان لي في أبي ما يُفخر به دهورًا، ولكنّي أكتب لأتذكّر وأُذكّر، أن الدنيا قصيرة وإن طالت، وأن البقاء فيها عاريّة مردودة. فما مضى من عمره إلا شاهدٌ على صدق وعد الله: «**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**»، وما بقي لنا إلا أن نغتنم أيامنا قبل أن تُطوى صحائفنا كما طُويت صحائف من قبلنا.

إن الحديث عن أبي ليس مدحًا لرجلٍ مضى، بل دعوةٌ للسير على أثره؛ في الصدق، والإخلاص وحب العلم والعلماء، والحرص على ما يقرّب إلى الله. أكتب لأقول لنفسي ولإخوتي وأبنائه وأحفاده: ما دام المآل إلى التراب، فلنجعل بين أيدينا عملًا يرفعنا إلى الجنّة. وإن كنا نحزن لفقده، فإن عزاءنا أن نلحق بركب الصالحين الذين أنعم الله عليهم «**مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**».

رحمك الله يا والدي، فنسأل الله أن يغفر لك، وأن يلحقنا بك في دارٍ لا يُفارق فيها الأحبة، ولا يُفترق فيها الجمع بعد اللقاء.

نسبه ومولده:

هو الشيخ محمد بن فالح بن عثمان بن صغير بن عثمان بن محمد، من آل نافل من بني عمر من قبيلة سُبيع، رحمه الله رحمةً واسعة وجعل الفردوس الأعلى مثواه.

ولقد وثقّ شقيقي الدكتور سليمان -رحمه الله تعالى- نسب العائلة وشجرتها بخطه الجميل ورسمه بيده باحترافية عالية، وراجعها مع كبار العائلة، منهم: الوالد والأعمام والشيخ عبد الله الراشد الصغير -رحمه الله- وبعض أفراد القبيلة ومكث في مراجعته وتوثيقها ورسمها حوالي سنتين ثم راجعها الوالد -رحمة الله عليه- مراجعة نهائية وذلك عام ١٤١٠هـ.

شجرة العائلة بخط ورسم د. سليمان بن محمد بن فالح رحمه الله

وُلد الوالد -رحمه الله- عام في حدود ١٣٤٦هـ (ذكر ذلك عن نفسه[١] وسجل بالحفيظة ١٣٣٧هـ[٢] ويذكر أحيانا لمن يسأله أن ميلاده قريباً من سنة السبلة ١٣٤٧هـ، وذكر بعض الأقارب أنّه ولد ١٣٤٣هـ) في مدينة الزلفي بالمملكة العربية السعودية، ونشأ في بيت علمٍ وفضلٍ وقضاء، إذ كان والده الشيخ العلّامة فالح بن عثمان الصغيّر قاضي الزلفي آنذاك وعالمها وإمامها وخطيبها، فرعاه منذ نعومة أظفاره، وغرس في قلبه حبّ العلم والقرآن والعبادة، تربى في كنفه وتلقى عنه مبادئ العلوم الشرعية، ورافقه في أسفاره وتنقلاته بين القرى والمساجد المجاورة، يحضر بعض دروسه ويشهد مجالسه العامرة بالعلم والذكر.

(١) تسجيل صوتي مع إذاعة الرياض، نشر في يوم الثلاثاء ٢٧-٥-١٤٢٠هـ في حلقة قدمها الأستاذ إبراهيم الصقعوب وفقه الله وعافاه.

(٢) وهذا بعيد جداً لكن السابق كانوا لا يدققون في تسجيل الميلاد بالحفيظة وسبب بعده أنّ إخوته الذين يكبرونه جميعهم مسجلين بالأربعين وما بعدها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أثر الجد الشيخ فالح على الوالد رحمة الله عليهما:

منذ أواخر حياة الوالد -رحمة الله عليه- وتحديداً منذ عشرين سنة ولديّ اهتمام بجمع سيرة الجد -رحمه الله- ومع شُحّ المصادر.. قد بلغت -بحمد الله- ثلاثة مواد علمية نشر كل في حينه، ولا زلت أجمع في سيرته ووثائقه وآثاره أسأل الله التوفيق.(١)

وأول شي كتبته كانت "**عصارة الشهد**" وهي رواية الوالد في بعض ذكرياته عن الجد -رحمهما الله- وشيء من تاريخه. ومما رواه الوالد عن الجد وتأثره به أنّ الجد الشيخ: فالح بن عثمان بن صغير بن عثمان بن محمد، كان عالماً سلفي العقيدة، حنبلي المذهب مع اجتهاده فيه، ورعاً زاهدا قاضيا

---

(١) ومنها: عصارة الشهد
https://bit.ly/٤rYeKQd
وكذا: نعمة المنان
https://bit.ly/٣ZOWnS٠
وأيضاً: الرسالة الثانية للشيخ فالح بن عثمان
https://bit.ly/٤cdgJMd

عادلاً جمع بين العلم والعمل، نشأ في الزلفي فكان إمامها وخطيبها ومفتيها وقاضيها ومعلمها، ورمزًا من رموز العلم والدين في نجد.

وعاش -رحمه الله- عصرًا زاخرًا بالحراك العلمي والدعوي في نجد رغم صعوبة العيش آنذاك، وكان أحد رواده البارزين.

وُلد الجَدّ فالح عام ١٢٨٧هـ -على أصح ما ذُكر- ونشأ في الزلفي على الفطرة الصافية والعلم المتين، فشبَّ محبًّا للعلم الشرعي منذ نعومة أظفاره، وجاب البلدان في طلبه.

تتلمذ على أكابر العلماء في زمنه، فقرأ على الشيخ عبد الرزاق المطوع في الزلفي، وعلى الشيخ عبد الله بن دخيل في المذنب، والشيخ صالح بن عثمان القاضي في عنيزة، ثم رحل إلى بريدة ليتتلمذ على آل سليم، وفي الرياض لازم علماء آل الشيخ وعلماء الرياض، فنهل من علمهم العقيدة السلفية الصافية، ورسّخ فقه المذهب الحنبلي، حتى صار مرجعًا للعلم والقضاء في بلده، ومصدر إشعاعٍ علمي وروحي لأهلها.

ولما نضج علمه وذاع صيته، تولّى القضاء في الزلفي، فكان قاضيًا أكثر من عقدين، يُفتي الناس، ويقضي بينهم، ويعلّمهم أمور دينهم، فيجمع بين مكانة العالم وهيبة القاضي وتواضع المعلّم. كانت حلقاته في المساجد مقصد طلاب العلم، ومجالسه عامرة بالذكر والفائدة. ورغم سعة علمه ومكانته، كان زاهدًا في الدنيا، معرضًا عن زخارفها، متقلّلاً منها، صبورًا على البلاء، راضيًا بالقضاء. حتى إذا نال منه المرض وأضعف جسده، كتب إلى الملك عبد العزيز -رحمه الله- عام ١٣٥٦هـ يطلب إعفاءه من القضاء، معللًا ذلك بضعف صحته، فلما أُعفي تفرّغ للعبادة والقرآن. ولما اشتد به المرض حتى أصابه النسيان، فرّق كتبه على طلابه، لكنه -والعجب في ذلك- لم ينسَ القرآن الكريم حتى وفاته، فكان لسانه رطبًا بذكر الله، وصبره آيةً تُتلى في معاني الرضا واليقين. توفي تقريبا -رحمه الله- في ذي القعدة أواخر عام ١٣٥٩هـ -على الأرجح- كما ذكر الوالد والعم عبد الرحمن

بوثيقة من كتابة الأخ د. سليمان -رحمه الله- وكما ذكر ذلك صاحب كتاب "علماء آل سليم وتلامذتهم وعلماء القصيم" صالح السليمان المحمد العمري -رحمه الله- وقد ذكر أنّه أدركه ووصف شخصيته وزهده -رحمه الله- بينما يرى د. علي الطيار أن والدته العمة زينب -رحمها الله- أخبرته بوفاته وكانت في ذي القعدة ١٣٦٠هـ، وقد ذكر ذلك أيضاً الشيخ صالح القاضي -رحمه الله- في روضة الناظرين.

توفي الجد رحمه الله[١] بعد حياةٍ حافلةٍ بالعلم والتعليم والعبادة،

فخلّف أثرًا لا يُمحى في الزلفي وطلابها،[٢] وذريةً صالحةً حملت الراية من بعده.

---

(١) وقد وهم الشيخ ابن بسام –رحمه الله– وقال ١٣٥٦هـ، والصحيح أنّه ترك القضاء هذا العام ومرض ثم توفي أواخر عام ١٣٥٩هـ أو ١٣٦٠هـ.

(٢) ومن طلاب الجد رحمه الله الذين برزوا: الشيخ حمدان الباتل، شيخٌ مقرئٌ حافظ متقن، ولد في الزلفي عام (١٣١٠هـ) حسب إفادة أ. عبد الرحمن العليوي، قيل: فقد بصره وهو صغير، وكان يقطع المسافة من بلدته إلى درس الشيخ فالح سيراً على الأقدام، ودرس أيضاً على الشيخ العلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمهم الله أجمعين. عُدَّ في وقته مفتياً للزلفي، توفي سنة ١٣٨٥هـ رحمه الله تعالى. ومنهم: الشيخ محمد بن عبد العزيز بن منيع، شيخٌ ورع تقي، تولى إمامة جامع

وكانت سيرة الجد الشيخ فالح -رحمه الله- لها أثر بارز في أبنائه وبناته، ومنهم الوالد ابنه الشيخ محمد بن فالح بن عثمان الصغيّر -رحمه الله- أحد ثمار تلك الشجرة الطيبة. فقد نشأ في كنف أبيه، وتربى على سُنّته، وامتصّ من مجلسه روح العلم والوقار. لم يكن بيت الشيخ فالح بيتًا عاديًا؛ بل كان مدرسةً علمية تربوية قائمة.

كان الوالد الشيخ محمد يرافق والده الجد فالح في رحلاته وتنقلاته بين القرى والمساجد المجاورة، يشهد مجالسه، ويرى أثر علمه في الناس، ويسمع ثناءهم عليه، فيتعلّم كيف يكون العالم خدوماً رحيمًا بطلابه، قريبًا من الناس، صبورًا في دعوتهم. وقد بدا ذلك جليًّا في حرصه على

المنيع بالزلفي، توفي عام ١٣٦٦هـ رحمه الله تعالى، والشيخ إبراهيم بن عبد الله الطريقي رحمه الله، والشيخ عبد الله الغيث رحمه الله، والشيخ علي الحميدان رحمه الله، والشيخ ابراهيم بن سليمان الدرويش رحمه الله، والشيخ فالح بن محمد الرومي رحمه الله –وسيأتي شيء من ترجمته– والشيخ محمد العمر رحمه الله –وسيأتي شيء من ترجمته– والشيخ عبد الله بن غديان –رحمه الله– عضو هيئة كبار العلماء، والشيخ عبد الله الراشد الصغيّر رحمه الله تعالى.

وبالمناسبة فقد ذكر لي أ. عبد الرحمن العليوي أن الشيخ حمدان –رحمه الله– تولى إمامة الفروض بالجامع الجنوبي بعد وفاة الشيخ محمد المنيفي ١٣٥٠هـ. وتولى الشيخ حمدان الخطابة بعد وفاة محمد عبد العزيز المنيع من نهاية عام ١٣٦٦هـ حتى وفاته عام ١٣٨٥هـ، فرحم الله الجميع.

تخصيص الدروس بين البلدتين (البلاد) و (العقدة)؛ فيجعل هذا اليوم في هذه البلدة، واليوم الآخر في الأخرى، حتى لا يُرهق طلاب العلم بكثرة التردد. وهذه -لعمر الله- **خصلة نادرة** في العلماء.

كما ظهر وفاؤه لهم في أواخر حياته حين **وزّع كتبه عليهم**؛ مكافأة لهم وتشجيعًا على مواصلة طريق العلم.

كانت تلك الصحبة المباركة للوالد في بواكير عمره من أعظم ما شكّل شخصيته العلمية والخلقية، فشبَّ على حبّ الدعوة، وحمل العلم في قلبه قبل لسانه، وتربى على التواضع والورع والإخلاص.

ومن أشد الكتب التي تأثربها الوالد -رحمه الله- والتي كانت تُقرأ على الجد -رحمه الله- كتب الإمام ابن كثير -رحمه الله- التفسير والبداية والنهاية، حيث كان لهم اهتمام بالتاريخ ويحفظ التواريخ بدقة -رحمه الله- وأيضا مهتم بأشراط الساعة وتبدل الأزمان. ومن أعجب ما سمعته منه قصة من

قصص بني إسرائيل: " كان رجل من بني إسرائيل فاتحا -أي فتح الله له مالا- فمات فورثه ابن له تافه -أي: فاسد- فكان يعمل في مال الله بمعاصي الله. فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت، ثم رحل فأتى عينا ثجاجة فسرح فيها ماله، وابتنى قصرا. فبينما هو ذات يوم جالس إذ شملت عليه ريح بامرأة من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجا -أي: ريحا- فقالت: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا امرؤ من بني إسرائيل قالت: فلك هذا القصر، وهذا المال؟ قال: نعم. قالت: فهل لك من زوجة؟ قال: لا. قالت: فكيف يهنيك العيش ولا زوجة لك؟ قال: قد كان ذلك، فهل لك من بعل؟ قالت: لا. قال: فهل لك إلى أن أتزوجك؟ قالت: إني امرأة منك على مسيرة ميل، فإذا كان غد فتزود زاد يوم وأتني، وإن رأيت في طريقك هولا فلا يهولنك. فلما كان من الغد تزود زاد يوم، وانطلق فانتهى إلى قصر، فقرع رتاجه، فخرج إليه شاب من أحسن الناس

وجها وأطيبهم أرجا -أي: ريحا- فقال: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا الإسرائيلي. قال فما حاجتك؟ قال: دعتني صاحبة هذا القصر إلى نفسها. قال: صدقت، قال فهل رأيت في طريقك هولا؟، قال: نعم، ولولا أنها أخبرتني أن لا بأس علي لهالني الذي رأيت، أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا بكلبة فاتحة فاها، ففزعت، فوثبت فإذا أنا من ورائها، وإذا جراؤها ينبحن في بطنها. فقال له الشاب: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، **يقاعد الغلام المشيخة في مجلسهم ويبزهم حديثهم.** قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا بمائة عنز حفل، وإذا فيها جَدْي يمصها، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئا، فتح فاه يلتمس الزيادة. فقال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، ملك يجمع صامت الناس كلهم، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئا فتح فاه يلتمس الزيادة. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بشجر، فأعجبني غصن من شجرة منها

ناضر، فأردت قطعه، فنادتني شجرة أخرى: "يا عبد الله، مني فخذ" حتى ناداني الشجر أجمع: "يا عبد الله، منا فخذ" قال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، **يقل الرجال ويكثر النساء**، حتى إن الرجل ليخطب المرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل قائم على عين، يغرف لكل إنسان من الماء، فإذا تصدعوا عنه صب في جرته فلم تعلق جرته من الماء بشيء. قال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، **القاص يعلّم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصي الله**. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بعنز وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها، وإذا رجل قد أخذ بذنبها، وإذا رجل قد ركبها، وإذا رجل يحلبها. فقال: أما العنز فهي الدنيا، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها، وأما الذي قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقا، وأما الذي أخذ بذنبها فقد

أدبرت عنه، وأما الذي ركبها فقد تركها. وأما الذي يحلبها فبخ بخ، ذهب ذلك بها. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، وإذا أنا برجل يمتح على قليب، كلما أخرج دلوه صبه في الحوض، فانساب الماء راجعا إلى القليب. قال: هذا رجل رد الله عليه صالح عمله، فلم يقبله. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجل يبذر بذرا فيستحصد، فإذا حنطة طيبة. قال: هذا رجل قبل الله صالح عمله، وأزكاه له. قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، إذا أنا برجل مستلق على قفاه، قال: يا عبد الله، ادن مني فخذ بيدي وأقعدني، فوالله ما قعدت منذ خلقني الله فأخذت بيده، فقام يسعى حتى ما أراه. فقال له الفتى: هذا عمر الأبعد نفد، أنا ملك الموت وأنا المرأة التي أتتك... أمرني الله بقبض روح الأبعد في هذا المكان، ثم أصيره إلى نار جهنم قال: ففيه نزلت هذه: (**وحيل بينهم وبين ما يشتهون**) الآية.

وقد سألت الوالد رحمه الله: ما مصدر هذه القصة؟ فقال: هذه سمعتها من والدي وأنا صغير وكان يقول حدّث عن بني إسرائيل ولا حرج.. وأخبار بني إسرائيل لا تصدق ولا تكذب.. ثم في أيام الجامعة بحثت عنها وأخبرته أنها في تفسير ابن كثير في سورة سبأ فكان إذا ذكرها قال رواها ابن عباس ذكرها ابن كثير في سورة سبأ.(١)

ومرةً دار بيني وبينه حوار ونقاش: ما المقصود في قول الله عز وجل: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ هل الكتاب اللوح المحفوظ أم القرآن الكريم؟ وكان يميل -رحمه الله- إلى أنّه القرآن الكريم كما ذكر القرطبي عن بعض أهل العلم: "في القرآن أي: ما تركنا شيئا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن: إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب، قال الله تعالى: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء**﴾(٢) وقال:

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، تفسير الآية (٥٤) من سورة سبأ.

(٢) [النحل: ٨٩].

﴿و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[1] وقال: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[2] فأجمل في هذه الآية وآية (النحل) ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرّط في الكتاب من شيء إلا ذكره، إما تفصيلا وإما تأصيلا، وقال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾[3][4]

فقلت: علماؤنا يرجحون أنّه اللوح المحفوظ. فقال ماذا يقول ابن كثير رحمه الله؟ (وكان الوالد يقول إن الإمام ابن كثير تفسيره على السنّة يعنى عقيدة السلف) فقلت الثاني!

ثم بعدها بأيام صليت بجانبه -رحمه الله- في جامعنا بالملز جامع الأمير متعب. فلما انتهى من الصلاة أشار لي بعينه، ثم سأل بصوت مرتفع شيخنا الشيخ عبد الله بن صالح القصيّر رحمه الله عن ذات المسألة ففهم الشيخ مراده

---

(١) [النحل: ٤٤].

(٢) [الحشر: ٧].

(٣) [المائدة: ٣].

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

وقال: المفسرون اختلفوا وكلاهما محتمل، وهو اختلاف تنوع وليس تضاد.. فلما خرجنا قال لي فيما معناه (اركد) يعني لا تتعصب لرأيك فالدين يسر ومعاني القرآن عظيمة، هكذا تعلمت من والدي -رحمه الله- يقصد الجد -رحمه الله-.

وقد سألني غيرُ واحدٍ من طلاب العلم: هل صحيحٌ أن الجَدَّ الشيخ فالحًا -رحمه الله- كتب تفسير ابن كثير بخط يده؟ والحقُّ أن ذلك لم يثبت لديَّ بدليلٍ قاطع، غير أنّي لا أستبعد أن يكون -رحمه الله- قد نسخ أجزاءً منه بخط يده؛ إذ كان كثيرٌ من أهل العلم في الأزمنة الماضية يُقبلون على النسخ بأنفسهم لقلّة المطابع آنذاك وضَعف الإمكانات المادية، فكانوا يجدون في الكتابة وسيلةً لتحصيل العلم واقتنائه. والله تعالى أعلم.

لم يكن أثر الجد الشيخ فالح رحمه الله في ابنه الوالد محمد مجرد تعليم، بل كان أثر روحٍ في روحٍ، وغرس إيمانٍ في قلبٍ

نقيّ. فقد ورث منه حبّ القرآن وتدبره، والحرص على قيام الليل، وملازمة الجماعة في المساجد، وختم القرآن كل أسبوع كما كان يفعل والده من قبل.

إن الميراث الذي تركه الشيخ فالح لم يكن مالًا ولا جاهًا، بل علمًا وعقيدةً وسلوكًا. وقد حمله ابنه الشيخ محمد بأمانةٍ، وأورثه أبناءه من بعده، فظلّ بيتهم بيت علمٍ وقرآنٍ وخلقٍ كريم. وما أعظم الأثر حين يكون العلم موصولًا بالعمل، والقدوة متصلةً بالذرية، فيصبح الجدّ مدرسةً والابن فصلًا من فصولها المضيئة.

لقد كان الشيخ فالح بن عثمان الصغيّر مناراتٍ للعلم والدين في زمنٍ قلّ فيه العلماء العاملون، وكان ابنه الشيخ محمد بن فالح امتدادًا لتلك التربية الصالحة التي جعلت من البيوت مدارسَ للعلم والقرآن.

أثر والدته عليه رحمهما الله:

لقد كان للشيخ محمد بن فالح بن عثمان الصغيّر -رحمه الله- نصيبٌ وافر من البركة التي ورثها من والدٍ عالمٍ وقاضٍ عادلٍ، وأمٍّ عابدةٍ زاهدةٍ نشأت في بيتٍ من بيوت الصلاح والعلم، فكانت له معينًا على الخير، ومصدرَ سكينةٍ في طفولته وشبابه. كانت والدته سارة بنت فايز المحمد الفايز -رحمها الله- من النساء الصالحات، اشتهرت بالعبادة والذكر وحسن التوجيه، نشأت في أسرةٍ عُرفت بالعلم والتقى، فوالدها الشيخ فايز المحمد الفايز من أهل الفضل، وبعض إخوانها من طلبة العلم المتميزين في وقتهم.

نشأ الشيخ محمد في كنف هذه الأمّ العالمة العارفة، فكانت تربيه على حبّ القرآن منذ صغره، وتغرس في نفسه تعظيم شعائر الله، وتوقير العلماء، والصبر على العبادة. كانت -رحمها الله- ترى في تربية أبنائها امتدادًا لبيت والده وجدّه، فربّته على الجدية والخلق والدعاء. كان بارًّا بوالدته، كثير

الذكر لها، مستحضرًا دعاءها في كل موطن، وكان يقول: بعد وفاة الوالد تحملت والدتي شيء عظيم فكنا إذا مرضنا ينفخ الوالد علينا بعض آيات القرآن، فكانت كالبرَد يصب علينا، وأحيانا نقوم كأننا نشطنا من عقال، ثم بعد وفاته -رحمه الله- كانت كذلك وتواسينا مع شدة الفقر الذي نعيشه مواساة المتوكل على ربه، وكان -رحمه الله- يحمل في قلبه من سمت والده ووالدته ، ما جعله شديد التواضع، كثير التعلّق بالعلم والقرآن، محبًّا لأهل الخير، مشجعًا لطلّاب العلم، رقيق القلب، عطوفًا على الضعفاء، بعيدًا عن المظاهر، قريبًا من الناس كما كان أبوه من قبل.

وقد تركت الجدة -رحمها الله- وصيةً مؤثرةً من إملائها عام ١٣٦٦هـ، أي بعد وفاة والدها فايز -رحمه الله- بنحو أربعين عامًا تقريبًا وزوجها الشيخ فالح بنحو ست سنوات.

(مرفق مشجرة لها، ووصيتها رحمها الله)

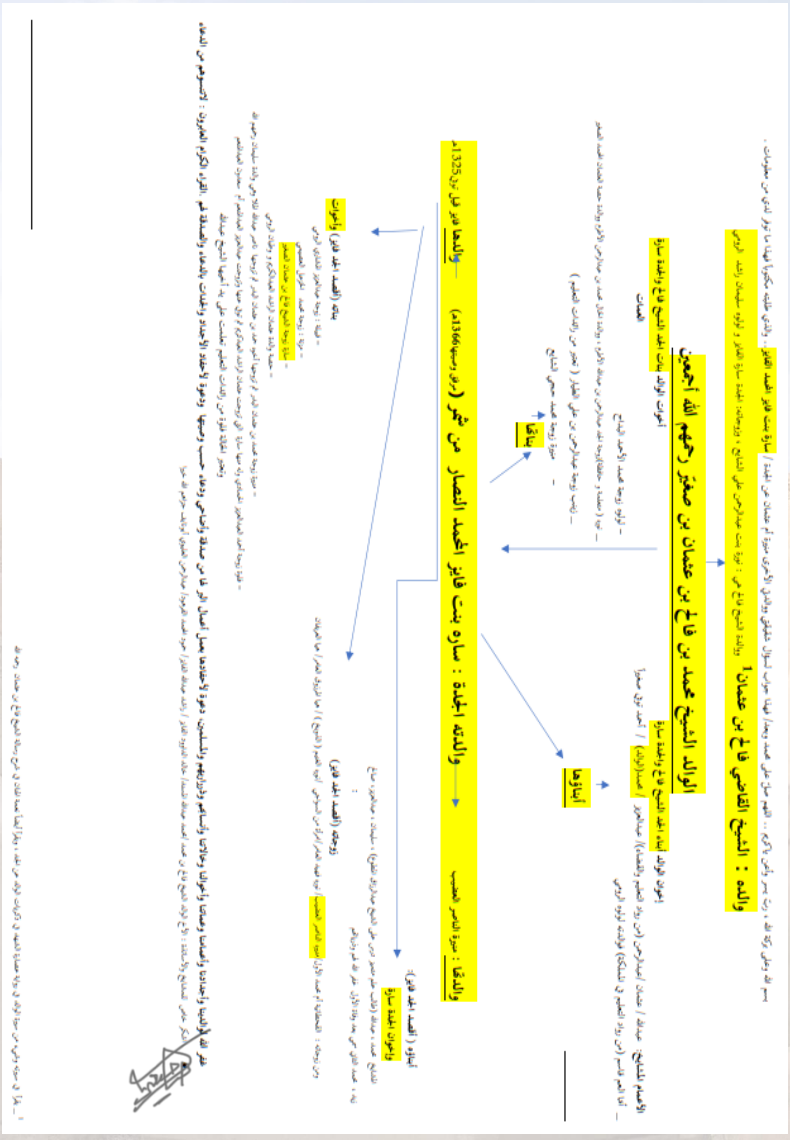

بسم الله الرحمن الرحيم

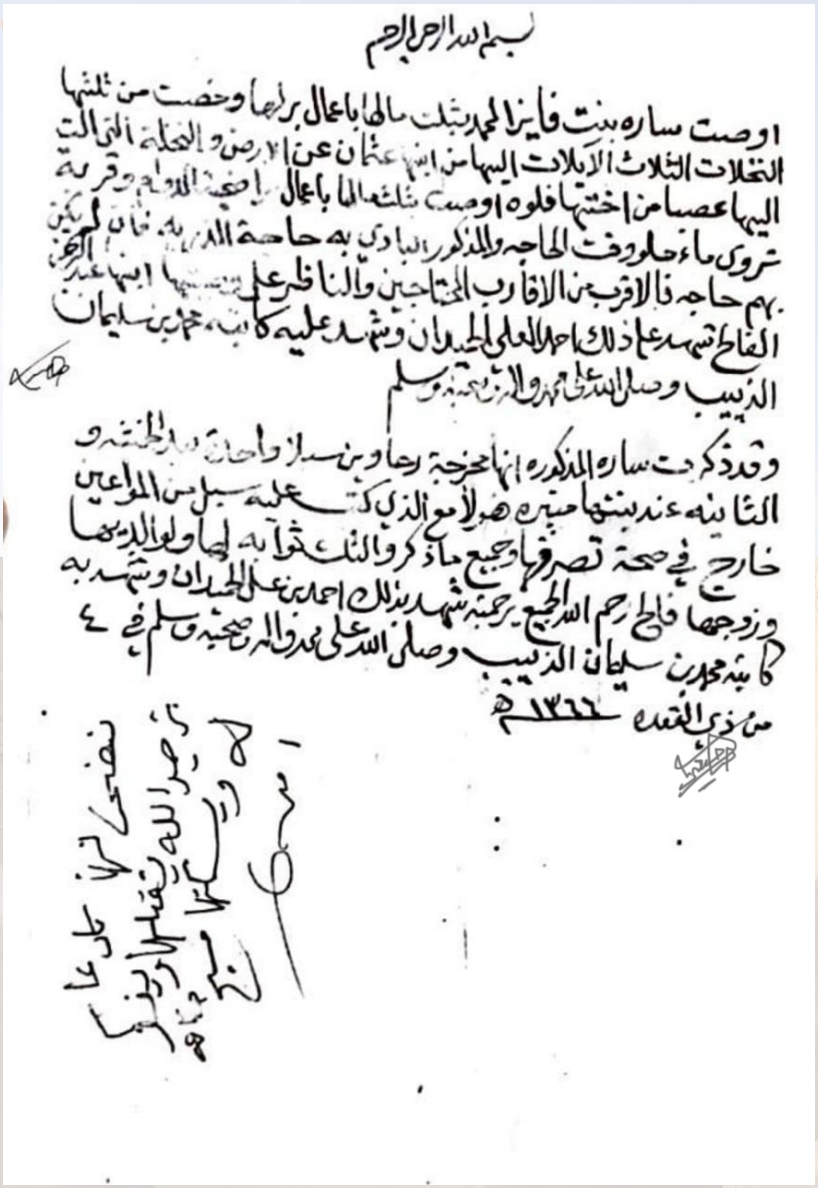

اوصت ساره بنت فايز المحمد بثلث مالها باعمال برلها وخصت من ثلثها النخلات الثلاث الايلات اليهما من ابنها عثمان عن الارض والنخلة التي الت اليها عصاما من اختها فلوه اوصت بثلث مالها باعمال [illegible] اضحية للاولى وقربة تروى ماء حلو وفت الحاجه والمذكور البادى به حاجة الذريه فان لم يكن بهم حاجه فالاقرب من الاقارب المحتاجين والناظر على [illegible] ابنها عبد الرحمن الفالح تشهد على ذلك احمد العلي الحيدان وشهد عليه كاتبه محمد بن سليمان الذييب وصلى الله على محمد واله وصحبه وسلم

وقد ذكرت ساره المذكوره انها اخرجة رحاوين سدلا واحاته [illegible] الخشبة والثانيه عند بنتها منيره هولامع الذي كتب عليه سبل من المواعين خارجت في صحة تصرفها وجميع ماذكر والثلث ثوابه لها ولوالديها وزوجها فالح رحم الله الجميع رحمته شهد بذلك احمد بن علي الحيدان وشهد به كاتبه محمد بن سليمان الذييب وصلى الله على محمد واله وصحبه وسلم في ٤ من ذي القعده ١٣٦٦هـ

جاءت وصيتها نابعةً من قلبٍ مخلصٍ امتلأ يقينًا بالله، فهي لم توصِ بمالٍ ولا بمتاعٍ، بل أوصت أحفادها وذريتها بعمل أعمال البر عنها، من الصدقة، والأضاحي، والدعاء، وزيادة الطاعات، ودعت إلى تذكّر آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم في الصلوات والخلوات، مؤكدةً أن دوام الدعاء والبرّ هو الصلة الحقيقية بين الأحياء والراحلين. كانت تلك الوصية المباركة امتدادًا لرسالةٍ عائليةٍ عظيمةٍ قوامها الإيمان بالله، والعمل الصالح، والدعاء المستمر للأجيال السابقة واللاحقة. توفيت رحمها قريباً من عام ١٣٦٨هـ. كان لوفاة والدته في تلك السنين العِجاف وقعُ الصاعقة على قلبه؛ إذ فقد الحضن الذي كان يلوذ به حين تضيق الدنيا، والصوت الذي يسكب في روحه السكينة إذا ادلهمّت الخطوب. فاجتمع عليه قحطٌ وشدّة في الحال، وألم الفقد ووطأة الحاجة، غير أن ذلك أورثه صبراً جميلاً.

رحم الله الجدة سارة بنت فايز الفايز، فقد تركت لأحفادها ميراثًا من التقوى، ووثيقةً خالدةً من الإيمان، تشهد أنها من الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.(١)

فجزاها الله عن ذريتها خير الجزاء، وجعل ما أوصت به صدقةً جاريةً تمتدّ آثارها في كل عملٍ صالحٍ يُهدى إليها، وفي كل قلبٍ من أحفادها يرفع لها دعوةً في ظهر الغيب، ويستضيء بسيرتها المباركة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

جد الوالد: عثمان بن صغيّر رحمه الله:

لم يدركه الوالدُ رحمه الله، غير أنّ ما نقله المؤرّخ الشيخ صالح السليمان العمري -رحمه الله- في كتابه "علماء آل سليم وتلامذتهم" يَدُلّ على أنّه كان رجلاً صالحاً، ومربّياً فاضلاً، ومن وجهاء الزلفي المعتبرين.

(١) [الطور: ٢١].

وقد وقفتُ -أنا كاتبَ هذه الوريقات- على ثلاث وثائق تتعلّق به: إحداها في **سدير**، والثانية في **الكويت**، والثالثة في **بريدة**؛ وكلّها تشهد بأمانته، وكثرة ترحاله، وحسن موقعه بين أهل زمانه. أما الوثيقة الأخيرة فتدلّ على حضوره مجالسَ علماء آل سليم رحمهم الله.

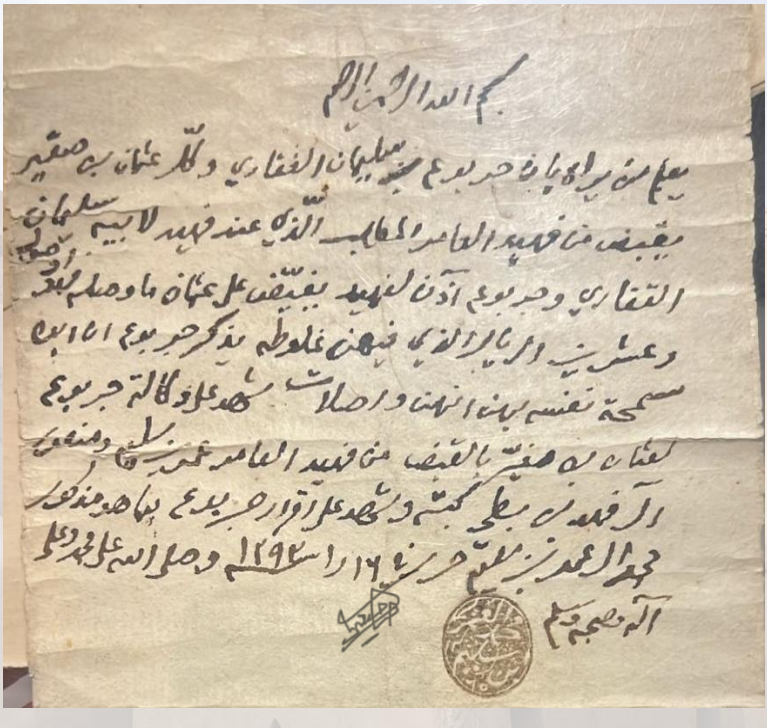

الوثيقة الأولى للجد عثمان رحمه الله١٢٩٢هـ

الوثيقة الثانية للجد عثمان رحمه الله١٢٩٦هـ

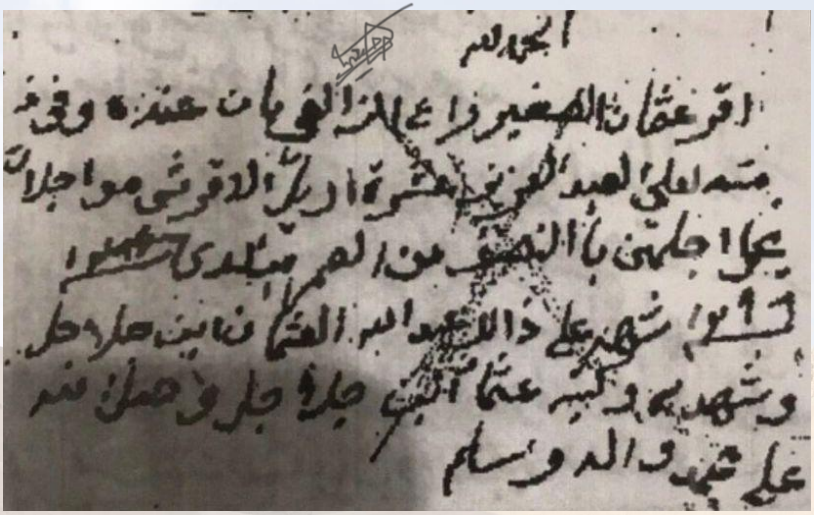

وثيقة تدل على حسن تعامل الجد عثمان بن صغيّر-رحمه الله-

وعلاقة بعدد من أهالي قرى نجد.

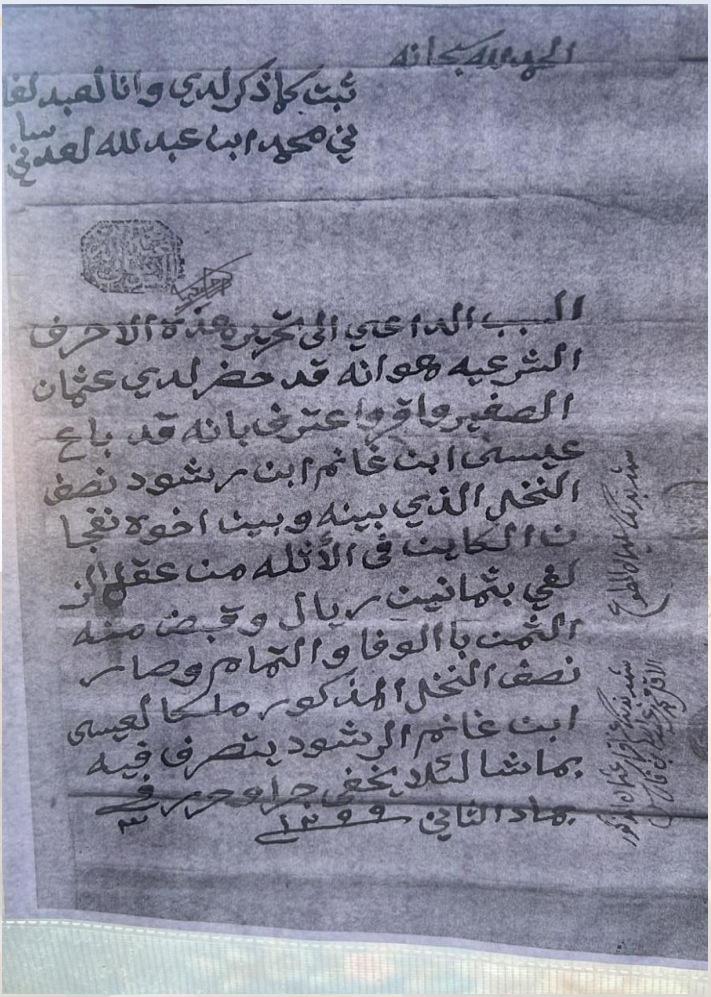

وثيقة عدسانية للجد عثمان بن صغير -رحمه الله- ١٢٩٩هـ تدل على علاقته الوثيقة بوجهاء الكويت تتضمن مبايعة في الزلفي

وكان وجهاء البلدان يستأمنونه على أموالهم، لما رأوا فيه من ديانةٍ وورعٍ ورجاحةِ عقل، فرحمه الله رحمةً واسعة، فقد خَرَج من ذريته رجالٌ ونساءٌ أحسب بعضهم علماء وصلحاء.

أعمام الوالد رحمهم الله:

محمد بن عثمان الصغير -رحمه الله- وهو أكبر إخوته -رحمهم الله- لم أجد في سيرته إلا ما حدثني به الأستاذ محمد العبد الله الراشد الصغير -رحمه الله- والباحث الأستاذ عبد الرحمن العليوي أبو نايف -وفقه الله- من أنّه كان مهتما بالتاريخ والأنساب وراوية للشعر، ومما حدث به الوالد أنّه كان كأبيه عثمان كثير الترحال وصاحب عقل وحكمة.

وأمّا العَمُّ الآخَر فهو راشد بن عثمان الصغير رحمه الله، والمتوفّى سنة ١٣٦٥هـ، وهو الأوسط بين العَمِّ محمد والجدّ الشيخ فالح. وقد وقفتُ على وثائق تشير إلى أنّه كان من

الزُّهّاد الصالحين، وأن وفاته جاءت بعد وفاة أخيه فالح بنحو ستّ سنوات تقريباً.

كما وقفتُ على وثيقةٍ تدلّ على فقهه ورجاحة عقله رحمه الله، إذ نصّت وثيقة على أنّه وهب أبناءَ ابنه عبد العزيز - وقد تُوفِّي الابن قبل أبيه راشد- نصيبَهم من الميراث كما لو كان أبوهم حيًّا؛ فجعل لهم للذكر مثل حظّ الأنثيين، إكراماً لهم، وتحقيقاً لفقه الشريعة ومقاصدها في صِلَة الرحم وإيتاء الحقوق.

(مرفق وثيقته بذلك).

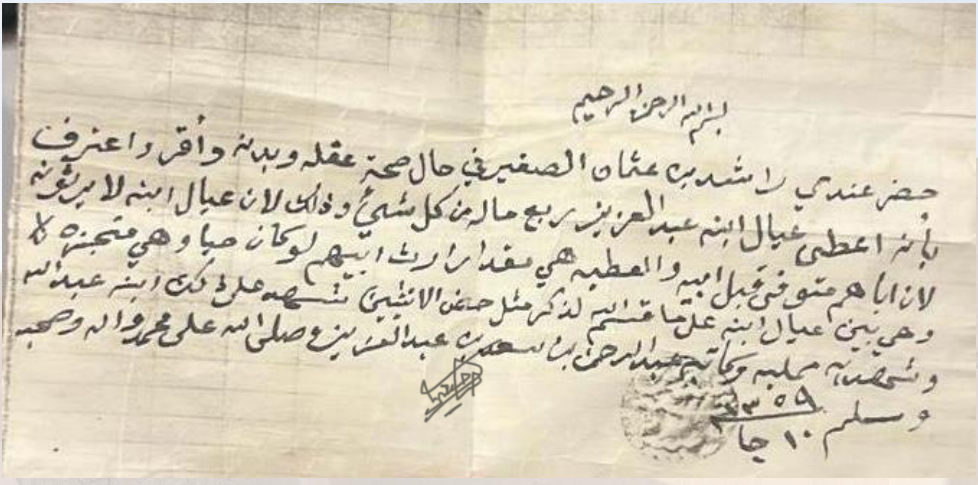

بسم الله الرحمن الرحيم

حضر عندي راشد بن عثمان الصغير في حال صحة عقله وبدنه وأقر واعترف
بأنه أعطى عيال ابنه عبد العزيز ربع ماله من كل شيء وذلك لأن عيال ابنه لا يرثونه
لأن أباهم متوفى قبل أبيه والعطية هي مقدار إرث أبيهم لو كان حيا وهي منجزة لا
وهي بين عيال ابنه على ما قسم الله للذكر مثل حظ الأنثيين شهد على ذلك ابنه عبد الله
وشهد به [illegible] وكاتبه عبد الرحمن بن سعد بن عبد العزيز [illegible] وصلى الله على محمد وآله وصحبه
وسلم ١٠ جا [illegible] ٥٩

وقد رأيت وثيقة مشهورة لسور أهل الزلفي تضمنت ذكره.

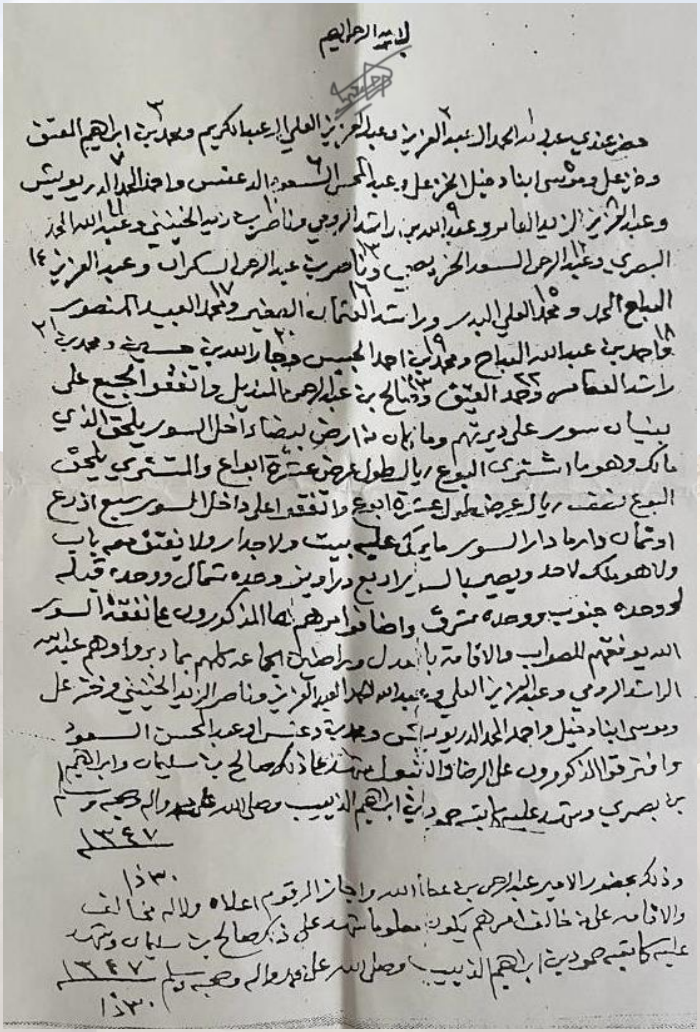

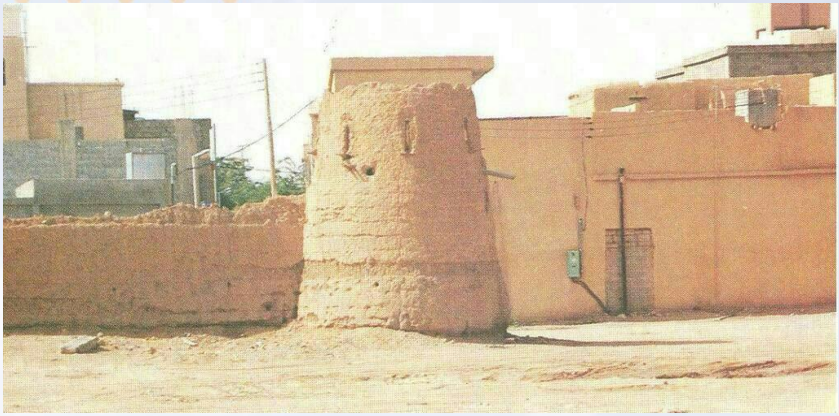

الصور السابقة لـ "سور الزلفي" من الأستاذ عبد الرحمن العليوي

جزاه الله خيراً

نشأة الوالد -رحمه الله- وعلاقته بإخوته رحمهم الله:

وُلد الشيخ محمد بن فالح بن عثمان الصغيّر -رحمه الله- في بيتٍ مملوءٍ بالعلم والعقل والوقار، بين إخوةٍ كبارٍ كان كلٌّ منهم مدرسةً قائمةً في الفضل والتقوى والخلق الرفيع. نشأ وهو يرى فيهم النماذج الحيّة للعلم والهمة والرجولة، فكانوا له آباءً بعد أبيه، يجلّهم ويستشيرهم، ويقدّر مكانتهم علمًا وسنًّا، حتى غدا بينهم كأصغر الغصون في شجرةٍ عتيقةٍ وارفة الظلال، يستمدّ منهم الثبات والظلّ والنور.

كان أخوه الأكبر العم **الشيخ عبد الله بن فالح الصغيّر -رحمه الله-** المولود عام ١٣١٩هـ، من الوجهاء العقلاء، صاحب رأيٍ وحكمةٍ وسعيٍ في الصلح بين الناس. عُرف بوقاره وسعة صدره وقلة كلامه، وكان حريصًا على الحج كل عامٍ على الجمال، في رحلةٍ تستغرق شهرين كاملين، لا يملّها لما فيها من مشقةٍ تعلّم الصبر، ومن عبادةٍ تُزكي النفس. أثّر

الشيخ عبد الله في أخيه الصغير محمد بروح السكينة والحزم إلى حد كبير، فكان مثال الأخ الذي يزرع في قلب أخيه احترام الكلمة وفضل الإصلاح بين الناس. وقد سكنا سويا، وعمل في الزراعة قرابة العشر سنوات قبل سفر الوالد للكويت -رحمه الله- ومما أذكره أن الوالد -رحمه الله- كان كثيرًا ما يحدّثنا عن علاقته بأخيه الأكبر عبد الله -رحمه الله- وكيف جمعتهما حياة الكدّ والعمل في الزراعة في ستينيات القرن الهجري، بعد وفاة الجد الشيخ فالح -رحمه الله- وقد عملا معًا سنوات طويلة في الحقول، وكانت أجرة العاملين معهم لا تتجاوز عشاء اليوم، في وقتٍ كان فيه الرزق شحيحًا والعيش صعبًا، ومع ذلك كانت النفوس راضيةً شاكرةً. وكانا يكرمان العمال العاملين معهم بما يتيسر من "قهوة الحلو (شاي)" يعدّونها مكافأةً لمن جدّ واجتهد.

يروي لي العم زيد الناصر العصيمي -رحمه الله- تلك الأيام، وكيف كانت القناعة والرضا زادَهم، والإيمان والعزيمة قوتَهم يقول عملت مع والدك وعمّك سنوات وهكذا كان حالنا.

فالحمد لله على ما نحن فيه اليوم من نعمٍ عظيمة وأرزاقٍ واسعة بعد تلك السنوات العصيبة. وممن عمل معهم أيضاً -وهذه فيها عبرة والله- أحد كبار رجال الأعمال اليوم على ملء بطنه فقط، واليوم هو كبير في السن وثروته تعادل ميزانية شركات ضخمة بارك الله.

فانظر -أخي القارئ- كيف داول الله الأيام والله المستعان، ونسأله سبحانه أن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يجعل ما قدّموه في ميزان حسناتهم. توفي العم الشيخ عبد الله -رحمه الله- يوم ١٤١٠/٩/٤هـ، غفر الله له ورحمه.

وأما العم **الشيخ عثمان بن فالح الصغير رحمه الله**، المولود عام ١٣٢٤هـ، فكان طالب علم عاملًا، كاتبًا لوالده،

ومرافقًا له في رحلاته إلى الرياض وبريدة والداهنة. لازم والده في القضاء، وتعلّم منه شيئا كثيرا من العلم والسلوك، وكان يكتب له المراسلات ويشهد معه الدروس والزيارات للعلماء والأمراء.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أنموذج من كتابات العم عثمان لوالده رحمهما الله

وأذكر أني صليت خلفه أيام أزمة الخليج فقَنَت على الظالمين قنوتاً مؤثرا، ولما رأيت بعض نهاياتهم عبر الشاشات بدا لي صوته ودعاءه كأنه الآن رحمه الله.

ومرة -وأنّا صغِير- حضرت له نقاشاً مع الوالد حول وقف الجد فالح ووصيته -رحمه الله- ولك أن تتصور هذا الوقف، إنّه (نخلتان نعم فقط نخلتان) وما آلتا إليه، فتأثرا وتأثر الوالد كثيرا -رحمه الله- ثم رأى الوالد -رحمة الله عليه- الاستعاضة عنهما بوحدتين سكنيتين صغيرتين وقال: "**لعله يكون عن تلك النخلتين**"، فبارك الله ذاك الرأي أضعافا، وأسأل الله أن يزيد في البركة.

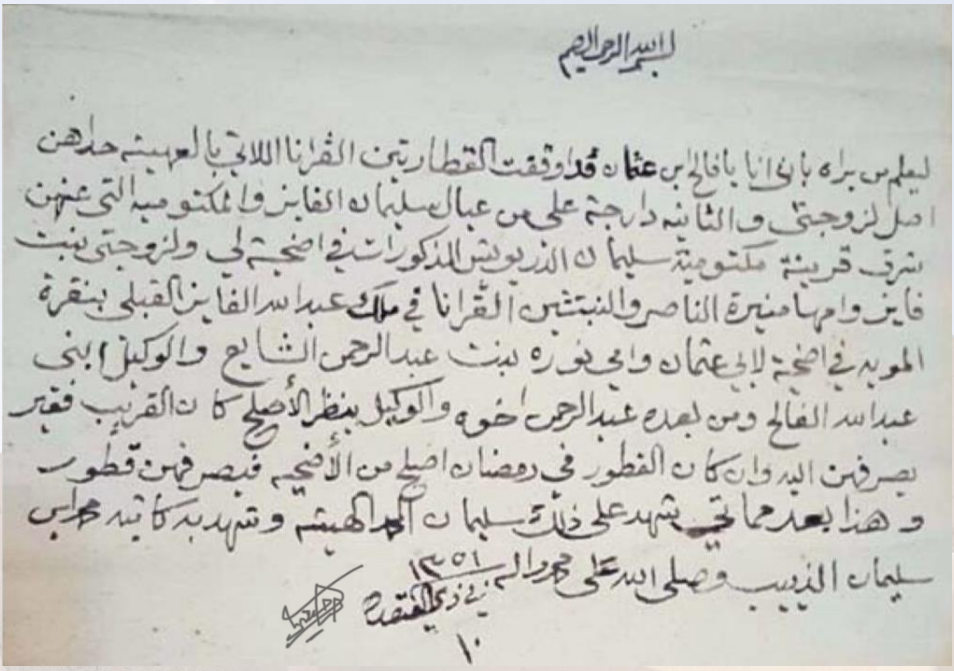

بسم الله الرحمن الرحيم

ليعلم من يراه بأني أنا بافالح بن عثمان قد أوقفت القطارتين القرانا اللاتي بالعهيشة حدهن
أصل لزوجتي والثانية داخلة على من عبدالله سليمان الفايز والمكتوبة التي عنهن
شرق قرينة مكتوبة سليمان الذويش المذكورات في اضحية لي ولزوجتي بنت
فايز وامها منيرة الناصر والنبتتين القرانا في ملك عبدالله الفايز القبلي بنقرة
الموية في اضحية لابي عثمان وامي نوره بنت عبدالرحمن الشايع والوكيل ابني
عبدالله الفالح ومن بعده عبدالرحمن اخوه والوكيل بنظر الأصلح كان القريب فقير
يصرف من اليد وان كان الفطور في رمضان اصلح من الأضحية فيصرف في فطور
وهذا بعد مماتي شهد على ذلك سليمان الحمد الهيشم وشهد به كاتبه محارب
سليمان الذيب وصلى الله على محمد وآله ١٣٥١ في ذي القعدة
١٠

وصية النخلتين للجد رحمه الله

والعم الشيخ عثمان -رحمه الله- اشتهر بطهارة القلب والعمل بالحسبة والإمامة سنين طوال وله سيرة حافلة في مجال الاحتساب لعل الله ييسر من يجمعها توفي -رحمه الله- يوم ١٤٢٠/٩/٢٥هـ.

وأما **العم الشيخ عبد الرحمن بن فالح الصغير**، فكان أحسبه من العلماء العاملين، نشأ على حفظ القرآن وطلب العلم في نجد والحجاز، وكان أول من ساهم في إنشاء المدارس في الزلفي. أحب العلم والتعليم، ففتح أبواب التعليم النظامي في وقتٍ كان الناس يتحسسون منه، فخرّج أجيالًا من طلاب العلم والمعلمين. كان ذا كرمٍ وشهامةٍ وسخاءٍ، لا يُذكر إلا مقرونًا بالخير. وقد تأثر به الوالد به كثيرا وتأثر هو به؛ إذ رأى الوالد فيه شيئاً من صورة أبيه في عطائه وحرصه على الناس، وكان يذكر فضله في الجمع بين العلم والعمل العام. وقد ترافقا سوياً بل وسكنا سوياً وأسسا سوياً دار الأيتام بالزلفي، فكان المدير الشيخ عبد

الرحمن، والمسؤول التنفيذي للمشتريات الشيخ محمد ومعهما أخوهما الشيخ قاسم رحمهم الله.

وقد أدركتهما سنوات طويلة، الوالد والعم عبد الرحمن في آخر حياتهما يتزاوران يومياً حال اجتماعهما في الرياض، وكان العم عبد الرحمن وقتها محباً للتاريخ وفي تلك الاجتماعات شرفني الله بأن قرأت عليه شيئا من البداية والنهاية لابن كثير، والفرج بعد الشدة للتنوخي، ولكنها كانت متفرقة ولم تدم طويلا وتفاجأت بعد وفاته -رحمه الله- باحتفاظه لكتاب الفرج بعد الشدة، وقد صوّر لي ابنه الأستاذ أحمد -حفظه الله- تعليق الإهداء عليه -رحمه الله رحمة واسعة- وقد كتب بعض أبنائه مقالات في سيرته منهم د. محمد - حفظه الله- في جريدة الرياض ، ونقلها عنه شيخنا الدكتور صالح بن حميد -حفظه الله- في كتابه مؤخراً المعنون بـ"مجالس الوالد" وهو كتاب نافع جدا، كما

كتب عنه ابنه الشيخ الدكتور بندر -حفظه الله- سيرة مختصرة له و قيّمه بحمد الله.

توفي رحمه الله في شعبان عام ١٤٣٥هـ.

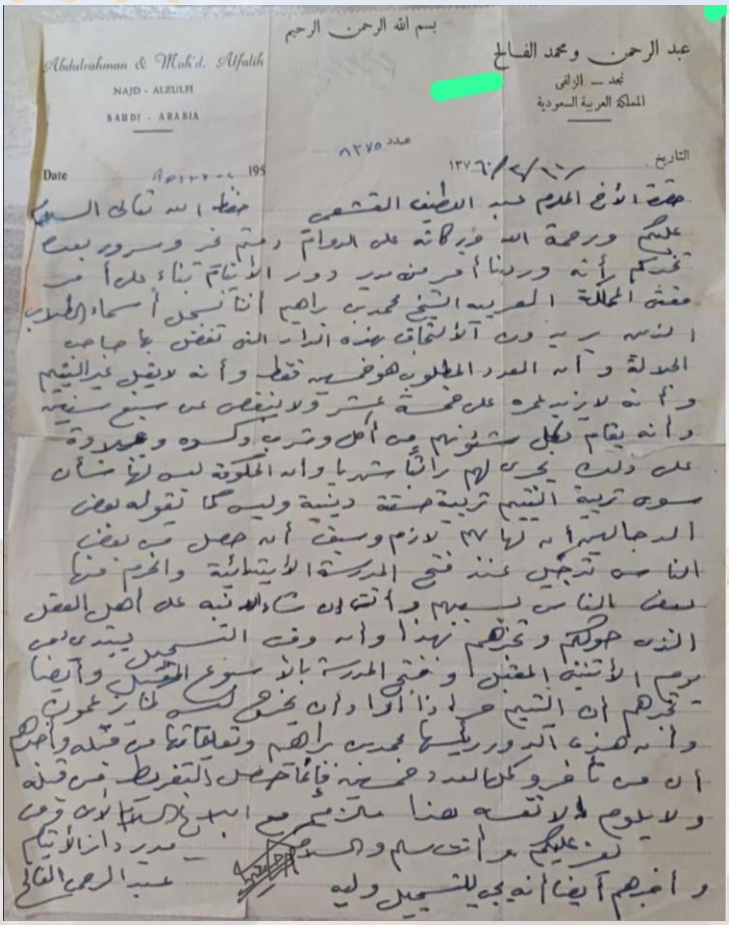

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الرحمن ومحمد الفالح
نجد ـ الزلفي
المملكة العربية السعودية

Abdulrahman & Moh'd. Alfalih
NAJD - ALZULFI
SAUDI - ARABIA

عدد ٨٢٧٥

التاريخ ٢٢/٢/١٣٧٦

Date ٩/٥/١٩٥٦ 195

حضرة الأخ المكرم عبد اللطيف القشعمي حفظه الله تعالى السلام
عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام ودمتم بخير وسرور بعده
نخبركم أنه وردنا أمر من مدير دور الأيتام بناء على أمر
مفتش المملكة العربية الشيخ محمد بن راشد أننا نسجل أسماء الطلاب
الذين يريدون الالتحاق بهذه الدار التي تنفق [illegible] الدولة
وأن العدد المطلوب هو خمسين فقط وأنه لا يقبل غير اليتيم
وأنه لا يزيد عمره على خمسة عشر ولا ينقص عن سبع سنين
وأنه يقام بكل شؤونهم من أكل وشرب وكسوة وعلاوة
على ذلك يجري لهم راتباً شهرياً وأن الحكومة ليس لها شأن
سوى تربية اليتيم تربية صحيحة دينية وليس كما تقوله بعض
الدجالين أن لها [illegible] لازم وسبق أنه حصل من بعض
الناس تدجيل عند فتح المدرسة الابتدائية والخوف منعه
بعض الناس [illegible] وأنتم إن شاء الله تنبهوا على أهل العقل
الذين حولكم وتخبرهم بهذا وأن وقت التسجيل يبتدئ من
يوم الاثنين المقبل وفتح المدرسة بأول شهر [illegible] وأيضاً
تخبرهم أن اليتيم [illegible] وأن يلحق [illegible]
وأن هذه الدور [illegible] بجميع [illegible] من قبله وأخبرهم
أن من [illegible] العدد خمسين فإنما حصل التفريط من قبله
ولا يلوم إلا نفسه هنا [illegible]
نعرفكم [illegible] عليكم السلام والسلام
وأخبرهم أيضاً أنه يجيء للتسجيل وليه

مدير دار الأيتام
عبد الرحمن الفالح

وثيقة لعملهما -رحمهما الله- سوياً في دار الأيتام وسيأتي الحديث عن الدار بإذن الله

وأما **العم الشيخ عبد العزيز بن فالح الصغير رحمه الله**، فكان من أبرز وجوه الاحتساب في المنطقة الشرقية، حيث تولّى رئاسة هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان وجيهًا، شجاعًا في المواقف. وكان لأخيه الوالد محمد به صلةٌ قويةٌ من الودّ والمودة رغم تباعد الديار، ثم اتفقا سكنهما في الرياض فأصبحا يجتمعان شبه يومياً في آخر حياة العم عبد العزيز، ويتناصحان في أمور الخير. وقد عملا سوياً في مجال الاحتساب والأمر بالمعروف بالشرقية فترة من الزمن. توفي -رحمه الله- يوم ١٤١٨/٦/٣٠هـ. وقد كتب بعض أولاده في سيرته مقالات عدة، ويُعتبرون من رواد الإعلام في المملكة العربية السعودية.

وأما العم **الشيخ قاسم بن فالح الصغيّر-رحمه الله-** فذاك ذو شأن آخر -مع أني لم أره رحمه الله- إذ هو أصغر إخوته رحمه الله، وكان الوالد محباً له جداً، والعم قاسم -رحمه الله- كان من رواد التعليم في المملكة، ومن أوائل من أسس

تعليم البنات في الطائف، وتولّى الإشراف على أول مدرسةٍ فيها عام ١٣٨١هـ، وكان ذا أخلاقٍ عاليةٍ وحلمٍ وسخاءٍ، محبًا للعلم، مخلصًا في عمله. وقد تأثر الشيخ محمد بهذا الخلق العالي، فكان يرى في أخيه الشيخ قاسم روح الجدّ والاجتهاد، ويثني عليه كثيرًا، ويُذكّرنا دائما بفضله وكان الوالد -رحمه الله- لا يعده أخاً فحسب، بل يعده صديقاً مخلصاً، تقاسما بينهما عشرة لا يمكن وصفها، وقد كتبت في سيرته مقالاً ساعدني فيه ابنه الدكتور سليمان بن قاسم الفالح وفقه الله. توفي العم الشيخ قاسم رحمه الله عام ١٣٩٧هـ.(١)

وقد وصف المؤرخ الأديب الشيخ محمد بن عثمان بن صالح بن عثمان القاضي من عنيزة في كتابه **"روضة الناظرين"** أبناء الشيخ فالح -رحمه الله- بقوله: **"وخلّف ستة أبناء بررة: عبد الله وعثمان وعبد الرحمن وعبد العزيزومحمد**

(١) انظر: ذكريات شموع الروضة (٦) الشيخ المربي قاسم الفالح رحمه الله، والريادة في الإمامة والإدارة والتعليم

وقاسم وكلهم أدباء وأهل ثقافة. كما أنّ له أحفاداً يحملون مؤهلات عالية.." [1]

لقد كان الوالد -رحمه الله- أصغر الرجال في هذه الأسرة الكريمة ويليه الشيخ قاسم -رحمه الله- فأكرمه الله بقلبٍ كبيرٍ يحتمل الجميع، وتواضعٍ جعله قريبًا من الكبير والصغير. كان يرى في إخوته الأسوة والبركة، فيستشيرهم ويستشيرونه دائما، وقد رأيت حله بعض الأمور المعضلة بخفاء -رحمه الله- لدى الأسرة في أمورها الخاصة والعامة، ويتنازل عن رأيه حبًا في جمع الكلمة، ويؤثر رضاهم على نفسه، وكان إذا تحدث عنهم تحدّث بخشوعٍ يليق بأخٍ صغيرٍ تخرّج في مدرسة الكبار.

ولم يقتصر أثر الأسرة عليه من جهة إخوته فحسب، بل كان لأخواته الصالحات أثرٌ عظيمٌ في تكوين روحه الهادئة وإيمانه العميق. فقد كانت **لولوة، ونوره، وزينب، ومنيرة -رحمهن الله-** من النساء الصالحات العابدات القانتات،

---

(١) روضة الناظرين في مآثر علماء نجد وحوادث السنين ٣/٢١٨.

قارئاتٍ للقرآن، حافظاتٍ للذكر، عاملاتٍ بالخير، مضرب المثل في البرّ والستر والصلاح. كنّ مثالًا للمرأة النجدية الأصيلة، يجتمعن على تلاوة القرآن، ويقمن الليل في بيوتٍ امتلأت نورًا وطمأنينةً.

كانت **لولوة** -رحمها الله- عاقلةً رزينة، تُعرف بحكمتها وحرصها على صلة الرحم، إذا تكلّمت أنصت لها الجميع، وكانت مأوىً للمشورة والودّ. توفيت في أواخر الستينات الهجرية رحمها الله.(١)

أما **نوره -رحمها الله-** فكانت من الحافظات المتعلمات، تلقّت علمها على الصالحات، وعُرفت بخشوعها في صلاتها ودوامها على التلاوة، وكانت -رحمها الله - مضرب المثل في ذلك، وكانت تزورنا كثيراً، وكنت أتعجب من قيامها لليل، وشدة تضرعها ودعائها رحمها الله. توفيت في عام ١٤٣٣هـ.

وكانت **زينب** -رحمها الله- من أوائل من شجعن التعليم النسائي في الزلفي، وهي زوجة الشيخ عبد الرحمن بن علي

(١) ذكر ذلك د. علي الطيار حفظه الله.

الطيار رحمه الله، تُعدّ من رائدات التعليم، وقد جمعت بين التفقّه في الدين والسعي إلى نشر العلم بين النساء، وقد كتب في سيرتها وكفاحها: ابنها د. علي بن عبد الرحمن الطيار. توفيت -رحمها الله- في ١٤٣٥/١٠/١٥هـ.

وأما **منيرة** رحمها الله، فكانت صاحبة خلقٍ رفيعٍ وحياءٍ جم، زوجة الشيخ محمد حجي الشايع، اشتهرت بكرمها وحسن تبعلها وصبرها، وكانت موصولةً بكتاب الله، حافظةً للدعاء والذكر. توفيت -رحمها الله- في ١٤٣٤/٧/١١هـ.

وقد نشأ الشيخ محمد بين هؤلاء الأخوات الطيّبات، فنهل من رحمتهن وحنانهن، وتعلّم منهن الصبر واللين والتقوى. كنّ له عونًا في حياته، وسندًا في مواقفه، ودعوةً صادقةً في غيابه. كان يذكرهن بخيرٍ، ويرى في صلاحهنّ امتدادًا لصلاح والديه وجدّيه، ويقول لمن حوله: **"إن البيت الذي تكثر فيه الراكعات العابدات، يبارك الله في رجاله ونسائه وأبنائه"**.

لقد جمع الله في هذا البيت المبارك رجالًا علماء عاملين، ونساءً صالحاتٍ عابداتٍ، فكان الشيخ محمد ثمرةً ناضجةً لشجرةٍ أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حينٍ بإذن ربه.

أثر معلمه الأول عليه الشيخ محمد بن عمر آل رحمة المشهور بـ"ابن عمر" رحمه الله:

أول ختمة للوالد -رحمه الله- للقرآن الكريم كانت على يدي الشيخ محمد بن عمر آل رحمة المشهور بمحمد العمر -رحمه الله- فأتقن قراءته على هذا الشيخ الجليل -رحمه الله- وأحسن حفظه، وكان من المواظبين على حضور حلقاته، مما أورثه رسوخًا في العلم، وخشوعًا في التلاوة، وحبًّا للقرآن رافقه طوال حياته.

والشيخ محمد بن عمر -رحمه الله- (١٢٨٩-١٣٨٩هـ) من المعلمين والمشايخ الذين كان لهم جهود كبيرة وعظيمة في العلم وتدريس القرآن، فالتعليم كان شغله الشاغل، حيث

يدرّس في الكُتّاب المعروف بـ (مدرسة محمد العمر) قرب جامع الملك عبد العزيز (المسجد الجامع قديمًا)، وقد وصف حفيده الشيخ عبد الرحمن بن سالم بن محمد العمر هذه المدرسة -كما نقلها عنه الشيخ الدكتور محمد البراهيم الحمد- قائلاً: "كانت غرفة مساحتها نحو خمسة في خمسة أمتار، لها مدخل واحد ونافذة واحدة، وعلى جدرانها دكة يجلس عليها الشيخ وطلابه، وأُفردت زاوية منها لجمع ألواح الطلاب، وكان اليوم الدراسي على فترتين:

- الأولى من الصباح بعد طلوع الشمس حتى نحو العاشرة صباحًا.
- الثانية بعد صلاة الظهر إلى ما بعد صلاة العصر".

أما طريقة التدريس، فيقول حفيده: **" كان جدنا يلقن الطلاب القرآن من سورة الناس إلى سورة النبأ، فإذا بدأ الطالب يتعلم الحروف يكتب له الشيخ على اللوح الخشبي بالحبر الأسود أو الأزرق، وبعد الحفظ يُغسل اللوح ويُعاد الكتابة عليه".**

وكان الطالب الكسول قد يمكث في السورة الواحدة شهورًا، حتى إن أحدهم بقي في سورة المسد أربعة أشهر كاملة. وبعد إتقان جزء عمّ، ينتقل الطالب إلى جزء تبارك، وهكذا حتى سورة البقرة، وإذا أتم الطالب القرآن يُقام له حفل تكريم في بيته بحضور زملائه وأهله، ويتناول الجميع طعام الغداء احتفاءً به.

بعد حفظ القرآن، يعود الطالب لتلاوة القرآن لتقوية قراءته حتى يتقنها، وبعض الطلاب ينتقلون إلى معلمين آخرين في الرياض أو القصيم لمتابعة التعليم.

وقد قضى الشيخ محمد العمر -رحمه الله- حياته في التعليم في الجامع، دون إجازات، إلا أنه كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، ويقوم ابنه **الشيخ أحمد** بالتدريس نيابة عنه في تلك الأيام.

كان يُعطي طلابه إجازة قبل العيد بيومين؛ ليستعدوا له حسب إمكاناتهم، أما الرحلات أو النزهات فكانت نادرة. وقد استمر على طريقته في التعليم أكثر من ستين سنة.[1]

---

(١) انظر سيرة الشيخ محمد بن عمر، لشيخنا الدكتور محمد الإبراهيم الحمد ص (١٤-١٦) منشورة عبر حسابه، وأيضا في سفره الكبير عن أبيه رحمه الله.

لقد كان لِتَتَلمذ الشيخ الوالد محمّد بن فالح على يد المقرئ الشيخ محمّد بن عمر آل رحمة أثرٌ بالغ في الإخلاص، والتجرد، وحبِّ تعليم كتاب الله تعالى. كانت تلك المدرسة المباركة، على تواضع بنائها وضيق مساحتها، جامعةً إيمانية تُخرِّج رجالًا رُبُّوا على الخشوع والوقار، وغُذُّوا بروح القرآن قبل حروفه، فشبُّوا وهم يحملون في صدورهم مهابة الذكر، ونور العلم، وصفاء النية.

لقد وجد الوالد -رحمه الله- في تلك المدرسة أنموذجًا فريدًا للتربية الربانية، فكان كثيرا ما يثني على معلمه الذي نحسبه جمع بين العلم والعمل، فزرع في طلابه محبة القرآن وتعظيم شعائره، وحسن الخلق مع الخالق والمخلوق.

لقد بقيت مدرسة الشيخ محمّد بن عمر ماثلةً في وجدان الوالد، رحم الله الشيخ محمد بن عمر، فقد ترك في تلميذه أثرًا خالدًا، ونفحًا ربانيًّا يورِّث القلوب حبَّ القرآن، وهيبة العلم، وصدق التوجّه إلى الله تعالى، فكان من ثمرة ذلك أن

بقي الوالد يختم القرآن بعده كل أسبوع وفي رمضان وقت نشاطه كل ثلاث تقريباً.

دراسة الوالد -رحمه الله- على الشيخ عبد الرحمن بن سعد -رحمه الله- مبادئ العلوم في الزلفي:

دائما ما يثني الوالد -رحمه الله- على الشيخ "ابن سعد خليفة" الجد في القضاء في الزلفي، والذي تولاه من عام ١٣٥٦هـ إلى عام ١٣٦٠هـ[١] وفي لقاء مسجل مع الوالد -رحمه الله-[٢] ذكر أنه سمع عليه الأصول الثلاثة وبعض المتون.

والشيخ ابن سعد هو عبد الرحمن بن سعد بن عبد العزيز بن حسن الفضلي، ولد في بلدة "ملهم" سنة ١٣٢٥هـ، حفظ

---

(١) مدون ذلك في وثيقة للشيخ محمد السليمان الذييب -رحمه الله- يحي سيرته الذاتية في كتاب الدكتور محمد البراهيم الحمد عن والده "إبراهيم بن أحمد الحمد" رحمه الله، وهو موجود في الرابط التالي:
https://bit.ly/٤kTSQeW

(٢) نشر في حلقة يوم الثلاثاء ٢٧-٥-١٤٢٠هـ في إذاعة الرياض، قدمها الأستاذ إبراهيم الصقعوب وفقه الله وعافاه.

القرآن الكريم وأتقنه في سنٍّ مبكرة، ثم شرع في طلب العلم، فقرأ على علماء الشَّعيب، وكان من أشهر شيوخه: الشيخ سعد بن عبد العزيز بن حسن، والشيخ إبراهيم بن سليمان قاضي حريملاء، والشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك. رحمهم الله.

ثم رحل إلى المجمعة ولازم قاضيها الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري رحمه الله، قبل أن ينتقل إلى الرياض حيث أخذ العلم عن كبار علمائها، وفي مقدمتهم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم، وأخوه الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم- رحمهم الله-.

عيّنه الملك عبد العزيز -رحمه الله- قاضياً في الزلفي، ثم نُقل سنة ١٣٦١هـ إلى قضاء الشعيب والمحمل، وكان مقر عمله في حريملاء .وفي سنة ١٣٨١هـ، نُقل إلى محكمة الرياض حتى وفاته سنة ١٣٩١هـ.

وكان الشيخ -رحمه الله- آخر من جمع بين قضاء الشعيب والمحمل؛ إذ أُنشئت لاحقاً محكمة المحمل ومقرها ثادق، وبقي هو قاضياً في حريملاء إلى حين نقله إلى الرياض.[1]

سفر الوالد من الزلفي إلى الرياض لطلب العلم و أثر ذلك عليه:

كان من عادة أهالي قرى نجد -رحمهم الله- إذا تعلموا مبادئ القراءة والكتابة على مشايخهم في القرى، وحفظوا القرآن وبعض المتون، أن يشدّوا الرحال إلى محافل العلم ومنابعه في المدن الكبرى، حيث تزدحم الحِلَق، وتتعالى أصوات التلاوة والمدارسة، وتُعقد المجالس على نور الكتاب والسنة. وكانت الرياض -في ذاك الحين- من أبرز تلك المدن، إذ ازدهرت فيها الحركة العلمية وعمَّ فيها نشاط العلماء وطلاب العلم، فكانت مقصد الراغبين في التزود من العلوم

(١) انظر: تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي، عبد الله بن محمد الزهراني (٣٧/٢)، وأيضاً تقرير بجريدة الرياض الأحد ٢ رجب ١٤٣٤ هـ الموافق ١٢ مايو ٢٠١٣م – العدد (١٦٣٩٣).

الشرعية واللغة، ومنبعًا للفقه والحديث والتوحيد، وملتقى العلماء من شتى أنحاء نجد.

وكان الانتقال إلى الرياض يعدّ في نظر طلاب القرى انتقالًا من طور التعلم الأول إلى مرحلة الرسوخ في العلم، إذ يجدون فيها العلماء الراسخين، وحِلَق الدرس المنتظمة، وبيئةً علميةً تنبض بالحفظ والمدارسة والمباحثة.

وقد جرت سنة العلماء في نجد على ذلك؛ يبتدؤون التعليم في الكتاتيب والقرى، ثم يرحلون إلى الرياض ليأخذوا العلم عن أكابره، تأسّيًا بما كان عليه سلف الأمة من الرحلة في طلب العلم، وامتثالًا لقول النبي ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة**».[1]

فكانت تلك الرحلات العلمية من القرى إلى الحواضر مظهرًا من مظاهر الجد والاجتهاد، ودليلًا على ما كان عليه أهل نجد من حرصٍ على العلم الشرعي، ووعيٍ بأهمية التلقي عن العلماء الراسخين، حتى انتشرت بركة العلم في أرجاء الجزيرة، وتخرج على أيديهم أجيال حملت مشاعل الهداية والنور.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقد كان الوالد -رحمه الله- من ضمن أولئك النفر الكرام الذين شدّوا الرحال في سبيل طلب العلم، مستجيبين لوصية آبائهم وسنّة سلفهم الصالح، ففي أواخر حياة والده، وبناءً على توجيهه، ارتحل عام ١٣٥٦هـ إلى الرياض، حيث كانت آنذاك منارةً للعلم ومهوى أفئدة طلابه.

ولكن **حصلت حادثة أخّرته** عن الالتحاق بحلقات العلم آنذاك، يقول -رحمه الله:

"درست على الشيخ ابن سعد -رحمه الله- في الزلفي عام ١٣٥٦هـ ثم انتقلت إلى الرياض للتعليم..ثم التقيتُ أخي عبد الله وابنَ العم عثمان المحمد الصغير -رحمهما الله -قادمين من الأحساء (جماميل) إلى الرياض، وكانت السيارات في ذلك الوقت قليلة لكنها موجودة. وفي حيّ المربع تعرّض ابنُ العم لحادث من إحدى السيارات التي كانت تنقل الجصّ لمواد البناء، فاشتدّ عليه الضرر وطُحنت ساقُه. فأمر الملك عبد العزيز -رحمه الله- بعلاجه عند الطبيب الشعبي المعروف محمود (المجبِّر)[1]، وكانت الصحيّة -أي المستشفى-

(١) الذي يظهر لي أنّه يقصد الدكتور: محمود حمدي حمودة، الطبيب الذي أولاه الملك عبد العزيز يرحمه الله، وسلمه عناية خاصة، وتولى تلك المهمات الطبية في ظل ظروف استثنائية، وموارد

قائمة في ذلك الزمن، لكن الملك عبد العزيز قال: «لو ذهبتم به إلى المستشفى لربما قُطِعت رِجله، ومحمود أشطر».

وفعلاً كان الطبيب محمود -رحمه الله- أجود بحمد الله، ومكث عنده نحو أربعة أشهر لا يتحرّك، يزوره الطبيب صباحاً ومساءً حتى منَّ الله عليه بالشفاء. وبعد ذلك أمر الملك عبد العزيز لنا بـ "الخَرْجِيّة" أي عطية ومالًا، عدنا بعدها إلى الزلفي، وكنتُ يومها قد تجاوزت العاشرة من عمري بقليل". اهـ[1]

شحيحة. وقد صدر بمر ملكي رقم ٤٢٥ في ٢١/ ١١/ ١٣٤٤هـ يعنى أول نظام لتدابير الصحية في الحج، ودعمت الصحة في حينها بأول ميزانية حكومية، وقام الدكتور محمود حمدي حمودة وفريقه بالإشراف على تطبيق تلك التدابير الصحية على أكمل وجه، وكان الدكتور محمود حمدي صوت المملكة الحاضر بقوة في المؤتمرات الطبية العالمية. التحق الدكتور محمود حمدي حمودة بخدمة الملك عبد العزيز في عام ١٣٤١هـ وهو أول مدير لمديرية الصحة العامة، ومن ثم مديرية الصحة العامة مصلحة الإسعاف حسب النظام الذي وضع في ١٤ رجب عام ١٣٤٤هـ. توفي الدكتور محمود حمدي حمودة عام ١٣٦١هـ على إثر مرض ألزمه الفراش بضعة أشهر (أم القرى الجمعة ٥ رمضان ١٣٦١هـ). من المجلة العربية عدد الجمعة ٢٠٢٠/٠٧/٣١ وصورة الطبيب موجودة في الرابط التالي:

https://bit.ly/٣ZPNVll

(١) من تسجيل صوتي في إذاعة الرياض (سبقت الإشارة إليه).

قراءته -رحمه الله- القرآن على الشيخ محمد بن سنان رحمه الله:

يقول رحمه الله: "عدت بعدها بمدة إلى الرياض لأكمل التعليم فدرست وقرأت على الشيخ محمد بن سنان -رحمه الله- والشيخ محمد بن سنان من العُبّاد الصالحين، وكان من أبرز معلّمي القرآن في الرياض في القرن الهجري الماضي. وقد تخرّج على يديه عدد من أهل العلم والفضل، وفي مقدمتهم الشيخ عبد الرحمن الفريان -مؤسس مدارس تحفيظ القرآن- والشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ -رحمه الله- مفتي المملكة العربية السعودية السابق، وعدد كبير وله مراسلات منشورة بينه وبين العلماء في المسائل الفقهية، وغيرهم من الحفّاظ وطلبة العلم الذين نهلوا من طريقته في الإتقان والحفظ. وقد ذكر الوالد حرصه وحفظه وإتقانه.

دراسته على يد الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله- وتأثره به:

ثم واصل طلبه للعلم على كبار العلماء من آل الشيخ وغيرهم، فدرس على أيديهم الأصول الثلاثة وكتاب التوحيد وشيئًا من الفقه والفرائض، فنهل من علومهم، وتأثر بمنهجهم القويم في تقرير مسائل العقيدة، وترسيخ مبادئ التوحيد الخالص لله تعالى. وخاصة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله.(١)

والشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، من أسرة آل الشيخ، وهو بحر علامة فهّامة -رحمه الله- عُرِف بأنه «علامة جليل أصولي محدث فقيه» في زمانه رغم إصابته بالعمى، وتولّى مواقع علمية وإدارية عليا داخل المملكة آخرها: منصب المفتي. خرّج أجيالا عديدة، ومما يذكر الوالد -رحمه الله-: "كان درس الشيخ محمد بن إبراهيم بمثابة «حلقات» منتظمة في الرياض، يحرص فيها الطلبة على حضور الدرس

(١) ذكر ذلك في تسجيل صوتي -رحمه الله (سبقت الإشارة إليه).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والاستفادة من منهجه. اعتمدت هذه الحلقات على قراءة المتون (كمتن التوحيد والواسطية والحموية) ثم مناقشتها وتحليلها تحت إشرافه، توفي -رحمه الله- عام ١٣٨٩هـ".

وقد عُرف عن جميع علماء آل الشيخ في تلك الحقبة رسوخهم في العلم، وسعة حفظهم، وحسن تدريسهم، فكانوا مدرسة في الفقه والديانة والاعتدال، فوجد الوالد في مجالسهم من النور والسكينة ما عمّق في نفسه حبّ العلم، وربّى فيه سمت العلماء العاملين، حتى عاد إلى بلده في قصة مؤثرة سيأتي ذكرها إن شاء الله.

وصف الوالد -رحمه الله- لبيوت طلاب العلم في ذلك الوقت:[1]

(١) ومما وُصف به رباطهم ذلك الوقت –في الخمسينيات الهجرية وما تليها– في الركن الجنوبي في مدينة الرياض، وعلى مقربة من بوابة دخنة القديمة، يقوم بناءٌ عريقٌ عرفه أهل البلد باسم رباط الإخوان، وهو رباط دخنة الذي كان ملاذًا لطلاب العلم الوافدين من قرى نجد ومن أطراف الجزيرة. يقع هذا الرباط بين بوابتين من بوابات الرياض القديمة؛ من الغرب يلاصق برج بوابة دخنة، ومن الشرق يتصل ببوابة عريعر أو ما تُعرف ببوابة معكال، وكأنه الحارس الأمين لتاريخ تلك الجهة من المدينة. بُني الرباط على نسق الأربطة القديمة في الحجاز والشام، فهو مستطيل الشكل، تحيط به حجرات متقابلة متوسطة الحجم، ليس فيها نوافذ إلا في واجهاتها المطلة على ممر طويل، تتعانق فيه الأعمدة الخشبية التي تحمل السقوف المصنوعة من جذوع الأثل وسعف النخيل. وأمام الرباط ساحة فسيحة تتوسطها بئر ارتوازية لم تزل مياهها تتدفق إلى اليوم، حولها أحواض من الحجر كانت تروي الظمأ، وتنعش الدواب والعابرين. في المساء، كان الطلبة يجتمعون عندها يغسلون أوانيهم ويتسامرون على ضوء القمر، يتهيأون ليومٍ جديد من العلم والدراسة. لقد أنشئ هذا الرباط من الملك عبد العزيز رحمه الله، حين رأى كثرة القادمين من القرى لطلب العلم على مشايخ الرياض، فرأى الملك أن يُبنى لهم مسكن قريب من حلقات الدروس. ومع مرور الأيام، لم يعد الرباط مجرد مكانٍ للمبيت، بل صار ميدانًا يعج بالحياة. فقد انتعش السوق القائم أمامه، وأقبل الناس إليه للبيع والشراء، تُعرض فيه المواد الغذائية، وأدوات السقيا، وأعلاف الدواب، حتى نافس سوق البلدة القديم في نشاطه واتساعه. وكان طلبة العلم يسكنون حجراته في سكينةٍ وورع، يتدارسون العلوم الشرعية واللغة العربية، ويقصدون حلقات المشايخ بعد الفجر والعصر. وكان الزائر يسمع من وراء جدرانه تلاوة القرآن ومناقشات الفقه وأصوات الطلبة وهم يراجعون الدروس. ولئن كانت الجامعات اليوم تُقام على أحدث الطرز وأوسع المساحات، فإن رباط دخنة كان نواةً لأول سكنٍ جامعي في هذه المدينة المباركة، بل كان المهد الذي احتضن جيلًا من العلماء الذين أضاءوا بنور علمهم أرجاء المملكة. هكذا كان رباط الإخوان في دخنة شاهدًا على زمنٍ مضى، لكنه باقٍ في الذاكرة، يروي للأجيال قصة البدايات،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وصف الوالد -رحمة الله عليه- وقت دراسته[1] فيقول: "ذلك الوقت قد وكلّ الملك عبد العزيز -رحمه الله- **الشيخ إبراهيم الشايقي** -رحمه الله-[2] على رباط طلبة العلم، واستأجر لهم بيوت كل بيت فيه حجر متعددة.. يسكن فيها عدد من طلاب العلم آنذاك عددهم ما بين الثلاثين إلى الأربعين.. وأمّا الإعاشة فهي تأتي من القصر والمطبخ يطلق عليه آنذاك مطبخ ابن مسلم".

في تلك الحقبة المباركة، تشكّلت شخصية الوالد على المنهج السلفي الأصيل، القائم على **تصحيح العقيدة، وتعظيم جانب التوحيد، وتطهير القلوب من شوائب الشرك والبدع.**

ويُذكّرنا بأن العلم في نجد بدأ من بيوتٍ طينية صغيرة، ولكنها حملت في جدرانها قلوبًا عامرة بالإيمان والعزيمة.

من وصف وتقرير بعنوان: "رباط الإخوان"، مدرسة "المفتين والقضاة" لخالد الزيدان بتصرف: https://www.alriyadh.com/٣٢٧٣٤٤

(١) في تسجيل له صوتي نشر في إذاعة الرياض رحمه الله.

(٢) والشيخ إبراهيم الشايقي من رجالات الملك عبد العزيز رحمه الله، جعله المسؤول المباشر عن شؤون العلماء وطلاب العلم، والمكلّف بمهام الربط والتنسيق بينه وبين سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية، ولا سيما في تعيين القضاة وطلاب العلم في الهِجَر والبيوت.

كان يسمع من العلماء تأكيدهم أن أعظم المعروف هو توحيد الله، وأشد المنكر هو الإشراك به، فغرسوا في قلبه اليقين بأن الدعوة إلى التوحيد هي أساس الإصلاح، وأنها امتداد لرسالة الأنبياء جميعًا.

تشرّب الوالد -رحمه الله- هذا المنهج، فكان إذا تكلّم دعا إلى الإخلاص لله وتوحيده، وإذا وعظ ذكّر بوجوب اتباع السنة، وإذا رأى منكرًا أنكره. وكان يحمل قلبًا ناصحًا رحيمًا، يرى في المناصحة عبادة، وفي الأمر بالمعروف شرفًا، وفي النهي عن المنكر أمانةً يؤديها لا رياءً ولا سمعةً، بل ابتغاء مرضاة الله تعالى، مستحضرًا قول النبي ﷺ:

"الدين النصيحة... لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم"[1]، ولقد عرف عنه ذلك رحمه الله.

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

وفاة الجد وتأثر الوالد -رحمهما الله- ورجوعه إلى الزلفي:

ومما حكاه الوالد رحمه الله: "في بواكير عام ١٣٦٠هـ في ليلةٍ من الليالي، ونحن في البيوت المعدّة لطلبة العلم في الرياض، وقد هدأت الأصوات، واستسلم كل واحد لفراشه، كنتُ على وشك النوم بعد يومٍ من طلب العلم واستقبال القادمين من الزلفي. وظنّ رفقائي أني قد غلبت بالنوم، فقال كبيرهم يسأل: ما أخبار الجماعة؟

فقال أحدهم: طيّبون، ولكن الشيخ فالح يطلبك الحل رحمه الله.(١)

فقال آخر: اسكت، لا يسمعك ابنه؛ لئلّا يقع الخبر في قلبه في هذه الساعة المتأخرة من الليل فيحزن.

وكأن الله قد كتب أن أسمع ما خفي، في تلك اللحظة التي يُبتلى العبد فيها في أحبّة قلبه. فقمتُ من فوري، وقد أيقنتُ أن الأمر ليس باليسير، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) أرجح الأقوال إن وفاة الجد الشيخ فالح -رحمه الله- في ذي القعدة ١٣٥٩هـ، وقيل في شوال ١٣٦٠هـ كما سبقت الإشارة إليه.

وتحوّلت ليلتي من سكونٍ إلى همّ لا يعلمه إلا الله؛ إذ بلغني خبر وفاة والدي، فاشتدّ وجدي، وجلستُ بقلبٍ منكسر، راضياً بقضاء الله، مستحضراً قول النبي ﷺ: «**إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا**».[1]

وبعد يومٍ أو يومين، بحثتُ عن قافلةٍ تسير إلى الزلفي، فلما يسّر الله اللحاق بها رجعت، ووقفتُ على قبر والدي أصلّي عليه، أدعو له، وأستودعه عند ربٍّ لا تضيع الودائع عنده. ثم مكثتُ أياماً وأسابيع، أرتّب أمري، وأتجرّع ألم الفراق، مستمسكاً ببشارة الله لعباده الصابرين. ثم هممت بالرجوع إلى الرياض لإكمال طلب العلم؛ فالعلم ميراث الأنبياء، ولا ينبغي للفقد أن يصدّ طالباً عرف طريقه. لكن دار بيني وبين أخي عبد الله حديثٌ؛ إذ كان يحبّ بقائي معه للعمل في المزرعة، وبقاء التعلّم من مشايخ الزلفي، ويرى ذلك خيراً وأرفق، نظراً لشظف العيش في ذلك الوقت".[2]

وكأني بقلبه قال: من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) حكاها الوالد مرارا رحمه الله، والصياغة بتصرف.

مرحلة الزراعة والإبل من حياة الوالد رحمه الله تعالى:

يقول رحمه الله: "مكثتُ بعد ذلك أعمل في الإبل والزراعة عشر سنين، من سنة ١٣٦٠هـ إلى ١٣٧٠هـ تقريباً[١]، وكان الجوع في نجد في ذلك الزمن ظاهراً، ومرّت علينا بعضُ سنيها وقد اشتدّ فيها الجوع وانتشر المرض، حتى ابتُلي الناس ابتلاءً عظيماً لا يثبت فيه إلا من صبر واحتسب ولجأ إلى الله تعالى.

وتظلُّ سنةُ ١٣٦٧هـ إحدى السنين الصعبة، وقد أطلق الناس عليها اسم "سنة الذرة الحمراء" نسبةً إلى نوع من الذرة ذات لونٍ أحمر، كانت تُجلب من جازان ومناطق الجنوب واليمن، وأصبحت في تلك الأيام العصيبة الطعامَ الوحيد المتوفّر في الأسواق.

وكان الناس يطحنون تلك الذرة ليصنعوا منها خبزاً رديئاً قليلَ القيمة الغذائية، شديدَ العَناء في عَجنه؛ إذ يتحول أثناء العجن إلى كُتلٍ متماسكة غير متجانسة، حتى ضربوا

(١) من تسجيل صوتي.

به مثلاً في وصف الرجل صعبِ الطبع، فقالوا: "**فلانٌ مثل عجينة الذرة**" تشبيهاً له بتلك العجينة التي لا تستقيم. ومع رداءة الذرة ومشقّة إعدادها، إلا أن الناس كانوا يشترونها بثمن مرتفع، ولا يجدونها متوفرة في كل الأحوال؛ لما أصاب البلاد آنذاك من شدة القحط، وغلاء الأسعار، وضيق المعاش، حتى غدت تلك السنة علامة من علامات البلاء التي لا تغادر ذاكرة أهلها".

وكانت تلك السنوات كثيراً ما يذكرها الوالد -رحمه الله- في مجالسه[1]؛ فقد عاشها عملاً وكفاحاً، يعمل في الزراعة ويقوم بالنقل على الإبل بصورة متواصلة، يتنقّل بين مدن وقرى نجد، ويشدّ الرحال كثيراً إلى الرياض. وكان يصف الطريق وصف العارف الخبير، ويقول إنّه هو ذاته الطريق السريع القائم اليوم، ويُسمّى عندهم "الرَّبِيَّة" -بتشديد الراء وفتحها وكسر الباء- وكانوا يقطعونه على الإبل في سبع إلى ثماني ليالٍ من الزلفي إلى الرياض.

كما كان يذكر معالم الطريق، ومنها جبل خزّة، وإلى غربه فيضة خزّة المعروفة اليوم، ويقول: "هي المنتصف بالضبط

(١) وذكر أجزاء من ذلك في تسجيل صوتي.

بين الرياض والزلفي"، ويروي ما مرّ به في تلك السنين من قصصٍ وحوادثٍ شكلت جزءاً من ذاكرته، وتركَت أثراً باقياً في حياته رحمه الله.

ومما مرّ عليه في تلك السنين يقول -رحمه الله-: "في بدايات الستينات الهجرية، كلّفني أخي عبد الله -رحمه الله وكان أكبر مني سناً وخبرة- أن أذهب لإحضار جِمالٍ "بعارين" من قَطِينٍ لبدو يعرفهم خلف جرَاب؛ وهي قرية تقع شرق الزلفي وتميل قليلاً إلى الشمال، تبعد قرابة السبعين كيلومتراً عن الديرة. وكانت تلك الأيّام أيامَ جوعٍ وشدّة، لا يكاد فيها المرء يجد قوت يومه. خرجتُ آخر الليل، ولم يكن في بطني شيءٌ؛ فقد قلت في نفسي: "لعلّي أدرك القطين إذا أسرعت، وأقضي المهمة قبل الليل" ومضيتُ أواصل السير وحدي على قدمي، لا يرافقني سوى صمت الصحراء، حتى قاربتُ العصر، وقد مضى عليّ يومٌ كامل بلا لقمة، فضعفتُ وتعبتُ، وكاد الجوع أن يغلبني. وبينما أنا على هذه الحال، رأيت امرأةً ترعى غنماً هزيلة، فدنوتُ منها وقلت: هل عندك شيء آكله؟ فأقسمت بالله أن لا شيء عندها يصلح للأكل،

وأن الغنم نفسها هزيلة لا تكاد تقف مما ألمّ بالناس من الجوع. لكنها دلّتني على موقع بيوت البادية، وقالت: "اذهب إلى خيمة الشيخ، فلعله يجد لك شيئاً" تتبعتُ الاتجاه الذي أشارت إليه، حتى وصلت إلى خيمة الشيخ. دخلتُ فإذا بالقوم في حالٍ يُرثى لها: نحولٌ ظاهر، وخيامٌ متعبة، ووجوهٌ أنهكها الجوع. فلما جلستُ في المجلس، شعرت أن وجودي أثقل عليهم من أن يُحتمل؛ فتفرّق من في المجلس واحداً بعد آخر، كلٌّ يجرّ جوعه وضعفه بعيداً.

حاولتُ أن أنام من شدة الإرهاق، فأدناني الشيخ -رحمه الله- وقال برحمةٍ يشعر بها الغريب قبل القريب: "قم... اغتبق" وأشار إلى طاسةٍ صغيرة، قد ملأ رُبعها حليباً، والباقي ماءً. شربتُ منها شيئاً، فلما دخل جوفي آلم بطني ألماً شديداً، كأنما أيقظ الحليب والماء جوفاً خاوياً منذ أيام، فوقفت وتركته. ومع الفجر، استيقظت على ألم معدتي، فقمتُ على جوعي وألمي، وأخذتُ البعارين كما كُلّفت، ثم سرتُ عائداً إلى الزلفي. كنتُ أمشي وأنا أجرّ خُطا منهكة، وقد بلغ بي الجهد مبلغاً كبيراً، حتى كدت أسقط من الضعف.

وفي لحظةٍ كأنها هدية من السماء، لمحتُ مسافراً على ظهر ذلول، فلما اقتربت منه، إذا هو الحُبَيْشي[1] -رجل عرفناه بالكرم والفزعة- فما إن رآني على تلك الحال، حتى نزل، وأخذ بيدي، وعرف أن الجوع قد بلغ بي مبلغه.

قال لي وهو يناولني الماء: "صبّرك الله... ما الذي بلغ بك هذا؟" ثم أعطاني قِرصاً من الخبز (قرص جمر)، وتمراتٍ، وماءً صافياً، فوالله كان كالغيث في زمن القحط... جلس معي قليلاً يثني على صبري ويواسيني بكلمات تطيب بها النفوس، ثم دعا لي دعاءً ما زال أثره في قلبي إلى اليوم. وأشهدُ الله أنني منذ تلك اللحظة ما زلت أدعو له كلما تذكّرت فزعته ورحمته. وهكذا عدتُ بالبِعارين، وقد حملت معي قصةً من قصص تلك السنين القاسية، سنين الجوع وشظف العيش، التي كان الرجل فيها يتقلب بين رجاء الله وصبر الأيام، لا يجد فيها العون إلا من كريمٍ يرحمه أو من رحمةٍ يرسلها الله إليه على هيئة رجلٍ راكبٍ على ذلول في صحراء واسعة". اهـ

(١) هو أحد أجداد أسرة الحبشي المعروفة اليوم، ويرجح أنّه أحمد العبد العزيز رحمه الله.

ويروي الوالد -رحمه الله- قصة أخرى أيضاً في إحدى رحلاته مع قافلة وإبل شمال الزلفي، كانوا يسيرون في نفود "الثويرات" في يومٍ شديد الحر، من تلك الأيام التي يتلظّى فيها الرمل وتكاد الريح الساخنة تُحرق الوجوه، وكان الركب كلّه يتقدّم، وهو يمشي خلفهم متعباً، أثقل عليه العطش حتى جفّ حلقه وضعفت قدماه.

يقول رحمه الله: "واصلتُ السير ما استطعت، ثم غلبني التعب فسقطتُ على الرمال دون أن يشعر بي أحد. سار الركب وابتعد، وأنا بين وعيٍ يذهب ويجيء، لا أرى حولي إلا الصحراء".

ولما استيقظ وجد نفسه وحيداً في وسط النفود، مستسلماً للعطش والحرّ، يقول:

"قمتُ أجرّ خطواتي، وكلّ خطوةٍ كأنها على جمر، فسرى الدوار في رأسي ثم سقطتُ مرة أخرى تحت أرطاة صغيرة، احتميت بظلّها الضعيف، واستودعتُ نفسي ربي، فما بقي في الجوف غير رجاء الله".

وكان يقول كثيراً: "**في ذلك اليوم رأيتُ ضعف بني آدم، وأن الحياة بيد الله وحده، يحيي بالقطرة ويسقي بالرحمة**".

وبينما هو على تلك الحال، ساق الله إليه رجلاً عابراً، يقول -رحمه الله-: "أقبل عليَّ رجل ودعا له، فلما رآني مُلقياً على الأرض، نزل، وسقاني ماءً كان معه، وأطعمني قليلاً، وقال لي: قم بسم الله... الطريق من هنا".

فأحسّ أنّ الحياة دبّت في جسده من جديد، وقام متوكلاً على الله، يتّبع الطريق حتى وصل إلى الزلفي بعد عناء شديد.

يقول رحمه الله: "ولما دخلتُ الديرة، وجدتُ الجماعة مجتمعين يخططون للبحث عني، فقد بلغهم أنني لم أصل مع القافلة. وكانت أمي -رحمها الله- مفزوعة، مستلقية على فراشها، لا تكاد تقوى على الكلام من شدّة الخوف". فلما رأته بكت فرحاً وشكراً لله غفر الله لهم أجمعين.

وكان يختم قصته بقوله: "تعلمتُ يومها أن النجاة ليست بالقوّة ولا بالزاد، وإنما بالله، فمن حفظه الله لا يضيعه، ومن توكل عليه كفاه".

وفي قصة وقعت له -رحمه الله- عام ١٣٦٩هـ[١] تدل على جلده وصبره ووفائه، حينما خرج مسافراً مع بعض أصحابه من الزلفي متوجّهين إلى الرياض، ومعهم أحمال من الحطب والأخشاب، وكان سفرهم على الإبل كما كانت عادة أهل نجد في ذلك الزمن. وبعد أن وصلوا إلى الرياض وباعوا ما معهم، وأقاموا أياماً يتهيؤون فيها للرجوع، أوردوا الإبل الماء عند مورد "مدي المربّع" المعروف في الرياض، وكان معهم في تلك الرحلة أربعون ناقة.

يقول رحمه الله: "بعد أن وردنا الإبل وتهيأنا للعودة، خرجتُ ومعي شاب صغير من الأقارب، كان رفيقي في الطريق، شاب، لم يذكر اسمه اليوم".

ولما ساروا حتى وصلوا ناحية جبل أبي مخروق، اعترضتهم سيارة جاءت من بعيد. وكانت تلك الأيام قليلة السيارات، ولم تكن الإبل قد ألفت منظرها ولا صوتها. وما إن اقتربت السيارة حتى فزعت الإبل فزعاً شديداً، فجفلت دفعة واحدة، وانطلقت مهرولة هاربة في الصحراء. وسقط الشاب من فوق ناقته من شدة الجفلة، فترك الوالدُ ناقته وركض

(١) وقد ذكرها رحمه الله في أكثر من موضع منها التسجيل الصوتي للإذاعة.

إليه خوفاً أن يكون أصيب بأذى، فلما رآه سالماً واطمأن إلى سلامته، قال له: "ارجع إلى الرياض، وأخبر القوم بما حدث، وأنا ألحق بالنوق وأدركها بإذن الله".

فانصرف الشاب مذعوراً، وعاد الوالد إلى الصحراء يركض وراء النوق الأربعين، يتتبع أثرها في الرمال، والوقت وقت شدة وظمأ، ولكنها الأمانة التي لا يتركها عند أول خوف.

وبعد مسافة غير يسيرة ساق الله إليه مجموعة من رجال البادية، فحدّثهم بما حدث، فقالوا له: "نساعدك على جعالة بيننا وبينك" فوافقهم، وانطلقوا جميعاً في أثر الإبل، يتنقلون بين الشعاب والنفود، يتتبعون أثر الحوافر حيثما ظهر.

يقول رحمه الله: "سرنا حتى أدركنا النوق قريباً من بنبان شمال الرياض، فأمسكت باثنتين منها، وعقلتهما بحبل، ثم نفرت بقية الإبل مرة أخرى وهربت، كأنها لا تستقر على حال" وبينما هو قائم على الناقتين أدركه اثنان من أصحابه الذين قدموا من الرياض بعدما أخبرهم الشاب، فلما وصلوا إليه وتشاوروا، اتفقوا على أن يتفرقوا في جهات

متعددة للبحث عن بقية النوق. أما هو فبقي عند الناقتين وباقي أمتعة السفر اللتين أمسكهما، ينتظر ما سيأتي به الله، فقد علم أن تركهما قد يجعل الأمر يتفاقم أكثر.

مرت الساعات ثقيلة، ثم مرت الأيام، وكان -رحمه الله- يقول: "انتظرنا يومًا ويومين وثلاثة، حتى بلغ الأمر خمسة أيام، لعلها ترد على الموارد والشعاب، ثم شاء الله أن تعود بقية الإبل من تلقاء نفسها، جاءت إلى المكان الذي كنا فيه كأن قوة خفية ساقتها إلينا، فحمدت الله حمداً كثيراً".

وكلما رويتُ هذه القصة عن الوالد -رحمه الله- ازددتُ يقيناً أنّها ليست مجرّد حادثة من حوادث السفر، بل مرآة صافية تعكس ما كان عليه من صفات الرجال الأوائل، ومن المعاني التي تكاد تغيب اليوم. فقد تجلّى في تلك اللحظات وفاؤه العجيب، حين ألقى كل ما بيده، وترك ناقته التي هي زاده وراحته ووسيلة سفره، لأجل شاب صغير سقط أمامه. لم يفكّر يومها في الإبل التي فزعت وهربت، ولا في الأحمال التي كانت عليها، ولا في المشقة التي ستلحقه إن ضاعت؛ بل كان همّه الأول أن يطمئن على سلامة ذلك الشاب، وهذا خُلُقٌ لا

يصدر إلا من قلبٍ تربّى على المروءة والنجدة، وعلى قول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».[1]

ثم إذا جاوز المرء ذلك الموقف، رأى فيه أمانته الراسخة، فقد كانت معه أربعون ناقة، وكل واحدة منها لها حقّ، وهي مال الناس ونفقتهم، فلم تخرج من صدره قط فكرة تركها أو الرجوع دونها، بل حمل الهمّ كلّه، وتتبّع أثرها في الفيافي، حتى بلغ منه الجهد مبلغاً كبيراً. وأشهد أني كلما تذكرت ذلك المشهد، أدركت معنى قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[2] لأن الإحسان هنا لم يكن كلمة تُقال، بل كان فعلاً وتعباً وصبراً ومطاردة بين الرمال والحرّ والعطش.

ولم تكن حكمة الوالد -رحمه الله- غائبة في أي لحظة من تلك الحادثة. لقد عرف كيف يتخذ القرار الصحيح حين اختار أن يبقى مع الناقتين اللتين أمسكهما، ولم يتركهما للبحث عن غيرهما، لأن العقل يقول إن حفظ ما في اليد أولى من إضاعة الجميع. ثم لما حضر أصحابه، وزّع المهام

(١) أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) [البقرة: ١٩٥].

عليهم، فجعل لكل رجل جهة، وبقي هو عند الناقتين، كأنه قائد يعرف موقعه في المعركة، لا يتهوّر ولا يستعجل، بل يقدّم النظر على الخطوة، والتوكل على التردد، وهذا من حكمة الرجال الذين جرّبتهم الأيام.

وكان مما يزيدني إعجاباً أيضاً: صبره وجلده؛ فقد مكث خمسة أيام كاملة يتابع الأثر ويسأل المار عنه، ويعيش بين حرارة الشمس وخوف الفقد وقلة الزاد، لا يرافقه إلا يقينه بالله. وهذا الصبر ليس صبراً عادياً، بل هو من جنس ما قال عنه النبي ﷺ: «**ومن يتصبر يُصَبِّره الله**»[1]؛ صبْرُ من يعلم أن رزقه وقدره بيد الله، وأنه إن بذل جهده فإن الله لا يخيّب سعي المؤمن.

ثم يأتي المشهد الأعجب: حين عادت الإبل الأربعون من تلقاء نفسها، كأن يداً من الغيب ساقتها، فاجتمعت عند مكانه بعد خمسة أيام. لا يمكن لمن يسمع هذه القصة أن يغفل عن أن يد الله كانت فوق كل شيء، وأن التوكل الصادق لا يخيب. فكم من إنسانٍ يجري خلف رزقه ولا يدركه، وكم من آخر يصدقه الله في قصده فيسوقه إليه

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

سوقاً. وقد كان والدي -رحمه الله- يردد: "**من توكل على الله كفاه، ومن صدق مع الله صَدَقَه الله**".

ولذلك كله، فإن هذه الحادثة عندي ليست رواية تُحكى، بل درس من دروس الرجولة والأمانة والتوكل. درسٌ يخبرني أن ذلك الجيل كان جيل قوة قلب، وقوة إيمان، وقوة صبر. جيلٌ عاش الصحراء وعاند الحرّ والجوع، ولكن كان في صدورهم من اليقين ما يجعل الواحد منهم يمشي في الفيافي وكأنّ الله أمامه يهديه، ومن خلفه يحفظه، وعن يمينه وعن شماله يكلؤه.

ولولا الله ثم مثل هذه القصص، لما عرفنا كيف كان أولئك الآباء رجالاً بحق، وكيف سطّروا بأعمالهم معاني الصبر والوفاء التي نقرأها اليوم في الكتب. لقد ترك -رحمه الله- في تلك القصة بصمة تقول: إن الرجولة ليست في القوة وحدها، بل في حسن التوكل، وحمل الأمانة، وصدق القلب، وثبات القدم في ساعة الشدة.

كانت تلك المرحلة من حياة الوالد -رحمه الله- في عشر الستينات الهجرية، من أكثر أيام عمره شغلاً وكدحاً. فقد

كان جلّ وقته مصروفاً في طلب لقمة العيش الحلال، يعمل في الزراعة حيناً، وفي التجارة على الإبل حيناً آخر، يقطع الفيافي مترحّلاً بين الزلفي والرياض والقصيم والكويت، وربما مرّ بالأحساء مرات قليلة، لا يجمعه بتلك الرحلات إلا الصبر والنية الصالحة وطلب الرزق من أبواب الحلال.

قصة زواجه الأول ووفاء صديقه المخلص سليمان بن حمد العتيق رحمه الله:

كانت سنة ١٣٦٩هـ بداية محطة جديدة في حياة الوالد -رحمه الله- ففيها عقد قرانه على الخالة هيلة بنت حجي الشايع رحمها الله، وكانت امرأة صالحة طيبة، فاضلة الخلق .غير أن الله ابتلاها ابتلاءً مبكراً؛ إذ أصيبت بمرضٍ عضال، فصبرت محتسبة، ورافقها الوالد -رحمه الله- في رحلة علاج شاقة، تنقّل فيها بين الكويت والقصيم يلتمس لها الشفاء، ولكن الأمر أمر الله، ولا رادّ لقضائه.

ومن رحم تلك السنة -على قِصرها- أكرمهما الله بمولود، هو أخونا الأكبر سليمان (الأول)، لكنه لم يعش طويلاً، إذ توفي صغيراً جداً، فاجتمع على الوالد ألم المرض وألم الفقد مرتين في عام واحد.

إذ ما كادت سنة ١٣٧٠هـ تنتهي حتى لحقت زوجته بربها، ففُجع الوالد بوفاتها وهو في مقتبل عمره، وذاق مرارة الفراق مبكراً، فكان صابراً راضياً، يستسلم لحكمة الله، ويعلم أن الدنيا دار ابتلاء، وأن الأجر مع الصبر.

ومما وقفتُ عليه، وثيقةٌ تُثبت استلام والدها -رحمه الله- نصيبه من الإرث في شهر ١ /١٣٧١هـ، وهذه شاهد على نزاهتهم وحرصهم على أداء الحقوق، وعلى صيانة الأمانة وحفظ العهود.

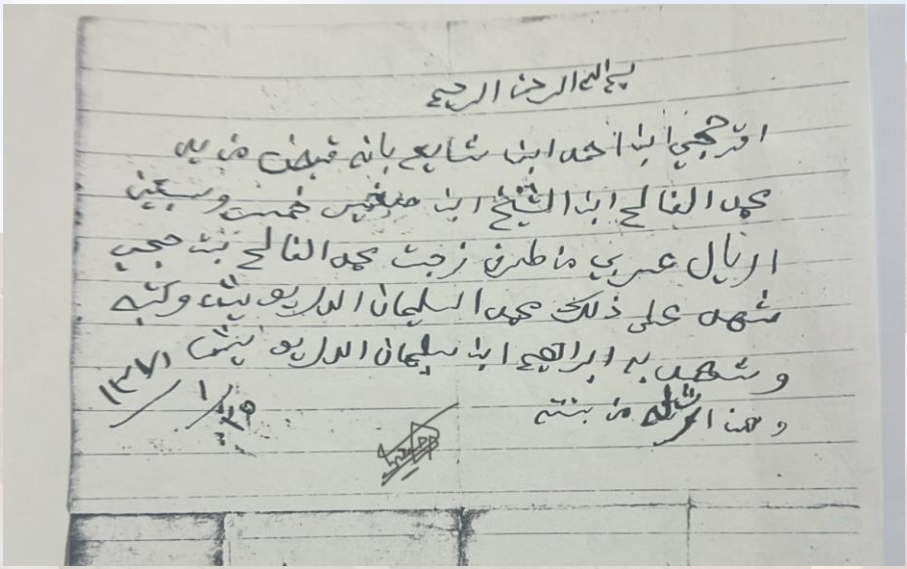

وثيقة استلام والد الخالة هيلة بنت حجي الشايع نصيبه من الإرث

رحمهم الله جميعاً

ولم تكن بداية زواجه يومها سهلة؛ فقد كان الوالد -رحمه الله- قليل ذات اليد، لا مال عنده يكفي مؤونة الزواج، فاستدان من بعض من يعرف، فاعتذروا. وبلغت حاجته صديقَه الوفي، وكان صاحب دكان معروف وهو الشيخ سليمان بن حمد العتيق -رحمه الله- فجاءه، وأعطاه المال بلا تردد، وقال له كلمته النبيلة التي بقيت تُروى: "ما عندي عندك... ومن عُسْرِكَ لِيُسْرِكَ"، وكان الشيخ سليمان -رحمه الله-من رجال الوفاء الذين إذا سمعوا بحاجةٍ لم ينتظروا طلباً، بل يهبّون لنجدة أخٍ في الله، صادقين في مودّتهم، ثابتين في مروءتهم. رجل كريم، كبير القلب، يواسي دون مِنّة، ويعطي دون حساب، وقد ظلّ الوالد يذكره بخير ما عاش، وكان كثير الدعاء له، يعدّ ذلك الموقف من أعظم معروفه.

الشيخ سليمان بن حمد العتيق رحمه الله

ومضت الأيام حتى توفي الشيخ سليمان سنة ١٤٣٣هـ، وقد لقيتُه قبل وفاته، فلما عرّفته بنفسي، تذكّر والدي، فبكى، وقال لي من قلبه كلمة لا تُنسى:

"أنت ابنُ أخي الذي لم تلده أمي".

وكانت تلك الجملة تختصر صحبة امتدت عشرات السنين، جمعت الوفاء بالوفاء، والصدق بالصدق، والمروءة بالمروءة، وشهدت على معدن رجلٍ لا يجود الزمان بمثله كثيراً.

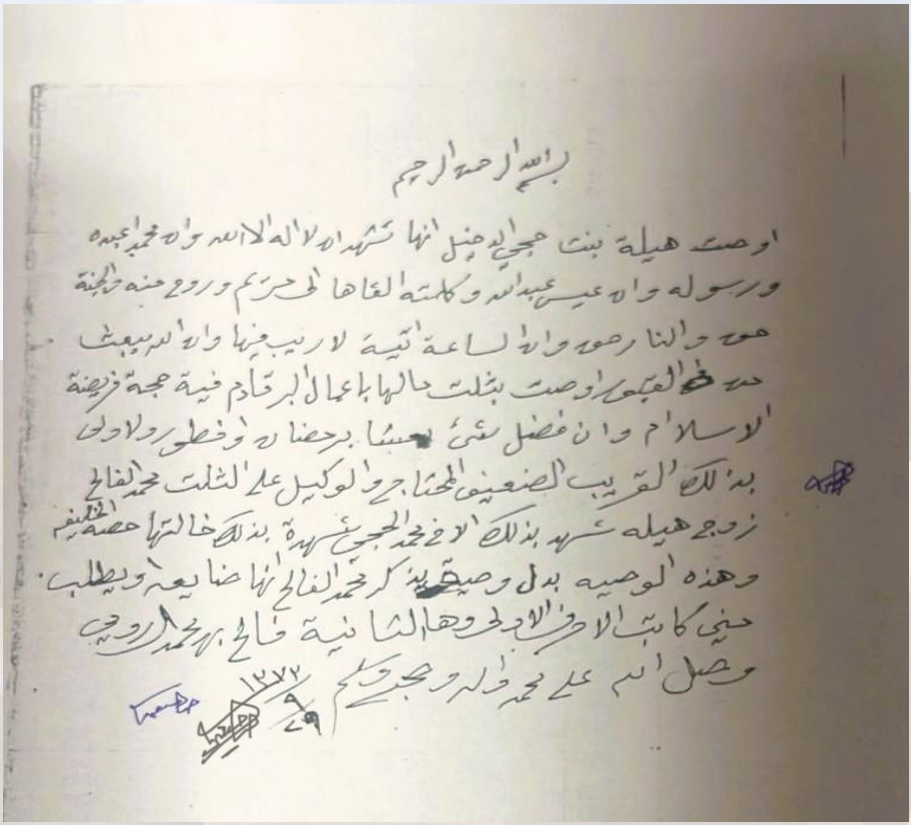

بسم الله الرحمن الرحيم

اوصت هيلة بنت حجي الدخيل انها تشهد ان لا اله الا الله وان محمد عبده
ورسوله وان عيسى عبد الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه وان الجنة
حق وان النار حق وان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث
من في القبور اوصت بثلث مالها باعمال البر قادم فية حجة فريضة
الاسلام وان فضل شي حبسا [illegible]
بذلك القريب الضعيف المحتاج والوكيل على الثلث محمد الفالح
زوج هيلة شهد بذلك الاخ محمد الحجي شهدة بذلك خالتها حصة الخليف
وهذه الوصيه بدل وصية [illegible] محمد الفالح انها ضايعة ويطلب
[illegible] كاتب الاول [illegible] وهذه الثانية فالح بن محمد [illegible]
وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

١٣٧٢

وصية الخالة هيلة بنت حجي الدخيل الشايع رحمها الله

وصية الخالة هيلة بنت حجي الدخيل الشايع -رحمها الله- وتوكيل الوالد رحمه الله:

أعود للخالة هيلة بنت حجي -رحمها الله- إذ منّ الله علي فوقفت على وصيتها المؤثرة لزوجها الوالد -رحمهما الله- وهذا نصّها:

"بسم الله الرحمن الرحيم

أوصت هيلة بنت حجي الدخيل أنها تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، أوصت بثلث مالها بأعمال البر قادم فيه حجة فريضة الإسلام وإن فضل شيء بعشاء برمضان أو فطور والأولى بذلك القريب الضعيف المحتاج، والوكيل بذلك محمد الفالح زوج هيلة.

شهد بذلك الأخ محمد الحجي وشهدت بذلك خالتها حصة الخليفة، وهذه الوصية بدل وصية يذكر محمد الفالح، أنها

ضايعة ويطلب مني كاتب الأحرف الأولى وهالثانية (هكذا كتبت) فالح محمد الرومي

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

٢٩ / ٩ / ١٣٧٣هـ"

ولاحظ أيها المحب كيف بدأت الوصية كعادة الصالحين من أولئك الزمان بأعظم شهادة، بدأت بقولها: «**تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور**»

وهذا -لَعَمر الله- نصّ عقيدة أهل السنّة والجماعة في أوضح صورها: توحيد الله تعالى ونفي الشرك: لا إله إلا الله، وإثبات رسالة النبي ﷺ وعبوديته: عبده ورسوله، لا غلو ولا جفاء، وإثبات حقيقة عيسى عليه السلام: عبدٌ لله، وكلمة ألقاها إلى مريم، وروح منه؛ ردٌّ على الغلو فيه.

والإيمان باليوم الآخر: الجنة، والنار، والبعث من القبور، والساعة الآتية لا ريب فيها.

هذه المقدمة ليست مجرّد سطور، بل هي إعلان ختام للعمر على التوحيد؛ كأنها تقول: هذا ما ألقى اللهُ عليه قلبي، وبه ألقى ربي.

ثم تأمل تنظيم التركة في حدود الشرع في قولها: «**أوصت بثلث مالها بأعمال البر**»

وهذا منضبط تماماً مع القاعدة النبوية في الوصايا: «**الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كثير**»، فهي لم تتعدَّ الحدَّ الشرعي في الوصية، بل حددت الثلث، وهو أقصى ما يُشرع أن يُوصَى به من المال، وهذا يدل على: فقهٍ شرعي، أو على الأقل صحبةٍ لأهل العلم.

رغبة في أن يكون المال سبباً لبرٍّ بعد الموت، لا سبباً لخصومة بين الورثة.

ثم تأمل تقديم أركان الإسلام وأعمال البر في قولها: «قادم فيه حجة فريضة الإسلام وإن فضل شيء بعشاء برمضان أو فطور» تقديم حجّة الإسلام من هذا الثلث إن كانت لم تحج، وهذا يدل على حرصها على إكمال أركان الإسلام ولو بعد الموت، ثم إن فَضَل شيء: يُصرف في عشاء أو فطور في

رمضان، أي: إطعام الصائمين، وهو من أعظم أعمال البر، فهي رتّبت برّها على مراتب: أداء فرضٍ متعيّن (الحج)، ثم نوافل بر وإطعام، في موسم فاضل (رمضان).

ثم تأمل تلك العناية خاصة بـ«القريب الضعيف» في قولها: «**والأولى بذلك القريب الضعيف المحتاج**» وهذا من دقّة الفقه القلبي: فهي لم تكتفِ بعموم «أعمال البر»، بل خصّت القريب الضعيف المحتاج، جمعاً بين: الصدقة وصلة الرحم، وفي الحديث: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة**»[1] كأنها تقول: لا تَنسَوا ضعفاء العائلة، فهم أولى من غيرهم ما داموا محتاجين.

ثم تأمل شهادة الثقة والوفاء للزوج «**والوكيل بذلك محمد الفالح زوج هيلة**» هنا يظهر مقام الوالد -رحمه الله- عندها: أوكلَت إليه تنفيذ وصيتها في مالها، وهذا دليل على ثقتها بدينه واطمئنانها إلى أمانته وورعه، وأنه في نظرها أقدر الناس على أن يضع المال موضعه الذي يُرضي الله.

---

(١) أخرجه النسائي (٢٥٨٢)، والترمذي (٦٥٨) وحسنه، وابن ماجه (١٨٤٤) من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٥٨).

فهذه ليست عبارة عابرة، بل هي وسام أمانة علّقته زوجة صالحة في عنق زوجها، وأثبتته في وثيقة مكتوبة، فصار حُجّة له أمام الله وأمام الناس.

ثم فقه الشهود والحفظ والحرص على الوصية في قولها: «شهد بذلك الأخ محمد الحجي شقيقها رحمه الله[1] وشهدت بذلك خالتها حصة الخليفة» مما يدل على حرصهم على الضبط والعدالة والتوثيق، وأن الأمر ليس مجرّد كلام في مجلس عابر.

ثم الجملة المؤثرة: «**وهذه الوصية بدل وصية يذكر محمد الفالح أنها ضايعة ويطلب مني كاتب الأحرف الأولى وهالثانية**».

ولا غرابة في أثر الوصية فصائغها وكاتبها هو الشيخ العالم فالح محمد الرومي -رحمه الله- وهو من تلاميذ الجد -رحمه الله- ودائماً ما كان الوالد يتحدث عن هذا العالم الجليل ومما يُنقل: أنّ الشيخ فالح الرومي وُلد في الزلفي سنة ١٣١٥هـ تقريبًا، في بيتٍ من بيوت العلم والصلاح، ونشأ

(١) وهو زوج العمة منيرة رحمها الله وقد عاصرته من أصلح من رأيت من كبار السن رحمة الله عليه.

نشأة مباركة، بدأها بحفظ القرآن صغيرًا، وتربّى على أيدي مشايخ بلده، ومن أبرزهم الشيخ عبد الرزّاق المطوّع والشيخ فالح بن عثمان الصغير. وظهرت عليه همّة طالب العلم مبكرًا، فكان يرحل إلى العلماء، ويحضر مجالسهم، حتى غدا من المعروفين بالزهد وصدق الطلب. ومع نضجه العلمي تولّى التدريس في مدرسة القرآن الأهلية، فتخرّج على يديه خلق من أبناء الزلفي، ثم عُيِّن مدرسًا في المدارس الحكومية عند افتتاحها سنة ١٣٦٨هـ. وظل يقوم بدور الإمام والخطيب في مسجد الرومي، يُعلّم وينصح ويصلح بين الناس، ويرقي المرضى، ويجلس للحلق والوعظ، حتى أصبح مرجعًا لأهل البلد في شؤون الخير والدين. أحيل إلى التقاعد سنة ١٣٨٤هـ، لكنه بقي على خدمته للناس بطريقته الهادئة المعهودة، حتى ابتلاه الله بمرض في آخر عمره. وتوفي -رحمه الله- ليلة عيد الفطر سنة ١٤٠٢هـ، فحزن عليه الناس كبيرهم وصغيرهم، لما كان يتحلى به من أخلاق طيبة وصفات حميدة، بقي أثرها في القلوب بعد

موته[1] رحمه الله رحمة واسعة، وجعل ما قدمه من علم ونصح في ميزان حسناته.

أعود للوصية و أقول هنا عدة معانٍ جميلة:

الوالد -رحمه الله- لم يرضَ بضياع الوصية الأولى، بل حرص أن تُكتَب من جديد؛ وهذا: دليل على حرصه الشديد على تنفيذ وصية زوجته. وأنه لم يتخذ ضياع الوثيقة فرصة للتخفف من التبعة، بل سعى لكتابة أخرى.

الكاتب أثبت أن هذه بدل الأولى الضائعة، وهذا يزيد في ثقل الأمانة: زوجة صالحة تكتب وصيتها، وزوج وفيّ يصرّ على إعادة كتابتها بعد ضياع الأولى، وكاتبٌ أمينٌ يسجّل ذلك بوضوح. ختمها الشيخ باسمه: «فالح محمد الرومي»، وختمها بالصلاة على النبي ﷺ، وتاريخها في ٢٩ / ٩ / ١٣٧٣هـ، وهذا يُتمّ جانب التوثيق، غفر الله لهم جميعاً.

في تلك السنوات العشر (١٣٥٩-١٣٧٠هـ)، ومع بداية سنّ الشباب للوالد، كانت الحياة تمضي به في طريقٍ صعب؛ عاش سنواتٍ من شظف العيش وضيق الحال، وكانت

---

(١) ممن ترجم له الشيخ عثمان القاضي في روضة الناظرين (٣/٢١٧).

المسؤوليات أكبر من سنّه، لكنّه واجهها بصبرٍ وإيمانٍ قوي بالله.

وخلال الستينات الهجرية مرّ بعدة صدماتٍ مؤلمة، بدايةً من فقد والده الذي كان السند والعون، فشعر بعده بثقل الحياة.

ولم تتوقف الأحزان عند هذا الحد، فتوفي عمّه راشد الذي كان قريبًا منه ويشد أزره، ثم توفيت والدته، ففقد الحنان والدعاء الذي كان يحيط به، وازداد إحساسه بالوحدة، ثم توفيت أخته لولوة التي كان لها مكانة خاصة في قلبه، فترك رحيلها أثرًا حزينًا في نفسه. وبعد ذلك فقد زوجته، شريكة حياته، وتوفي ابنه صغيراً فاجتمع عليه ألم الفقد من جهاتٍ عدة.

ورغم كل هذه المصائب، صبر واحتسب، وتعلّم من قسوة الأيام قوة التحمّل والرضا بقضاء الله. فكانت تلك السنوات، على شدتها، سببًا في صقل شخصيته، وزيادة إيمانه، وجعلته أكثر صبرًا وثباتًا في مواجهة الحياة.

الوالد -رحمه الله- والعمل في البناء في الكويت:

وفي بداية السبعينات الهجرية كان له نصيب من العمل في البناء في الكويت، حين سافر إليها كغيره من أبناء نجد يبحثون عن رزق أوسع. وقد كان يحدثنا عن تلك الأيام في الكويت، وكيف كان يعملون تحت الشمس وبين الجدران الطينية، لا يشكون إلا إلى الله، صابرين محتسبين راضين وفي في نفس الوقت متعايشين شاكرين.

ومن أبلغ ما بقي في ذاكرته -رحمه الله وبقي في لسانه دعاء لا ينقطع- ذكرُه لتلك العجوز الكويتية التي كانت تُشفق على العمال وتحنّ عليهم وتطعمهم، فإذا رأتهم متعبين قالت بلهجتها: "نيادا مساكين" تعني: (نجادا مساكين) عمالاً من نجد يشقون ويتعبون.

وكان يدعو لها حتى آخر عمره، ويذكرها بخير عظيم، ويرى أن الله سخّرها له ولغيره في تلك المرحلة الصعبة من حياتهم، فكانت رحمتها أثراً من آثار رحمة الله بعباده.

تلك السنوات بما فيها من رحلة وكدّ وتعب لم تكن مجرد مرحلة عمل، بل كانت --لمن تأمل- مرحلة تربية وإيمان وصبر وتعلق بالله، خرج منها الوالد -رحمه الله- بصفاء قلب، وقوة يقين، وخبرة بالناس والدروب والأيام، لا يعرفها إلا من عاشها.

ومن الطُّرف العجيبة التي كان يرويها الوالد -رحمه الله- أنّهم حين كانوا يعملون في الكويت ويقيمون في سكن العمال، كان بينهم رجل لا يؤمن بوجود الجن، ويجعلها من نسج الخيال، فإذا تحدّثوا عنها ضحك، وإذا أقام أحدهم دليلاً قال: "هذا كله كلام لا دليل عليه!" اجتهد رفاقه في إقناعه فلم يفلحوا، حتى قال أحدهم: "اتركوه عليّ، وسأجعله يرى ما يقنعه!" وفي ليلة من ليالي الشتاء، وقد سكنت الريح، ونامت الأصوات، وعمّ المكان ظلام كثيف، قام الرجل ليقضي حاجته في منتصف الليل. فما إن ابتعد قليلاً حتى خرج صاحبه من خلف جدار، وقد تزيّا بظلمة الليل، وجعل يصدر أصواتًا خافتة متقطّعة، كأنها أنين قادم من عالم آخر!

ثم تقدّم نحوه خطوة خطوة، وحرّك ظلاً هنا وظلاً هناك، حتى شعر الرجل بأن الأرض نفسها تتنفس من تحته! فما كان منه إلا أن رجع يعدو إلى الغرفة كأن الشيطان خلفه حقيقة لا خيالاً، وقد ارتعدت ركبتاه حتى كاد لا يحملانه، وغطّى وجهه بيده وهو يلهث، فلما جاء من الغد أثاروا حديث الجن من جديد، فتغيّر وجهه وقال في وقار: "الجن موجودون... موجودون!" فعلم صاحب المقلب أنه قد أدّى واجبه العلمي على أكمل وجه!

زواج الوالد بالوالدة رحمهما الله:

وفي خضمّ بدايات السبعينيات الهجرية، وإبان تردّد الوالد على الكويت للعمل، تزوّج بوالدتي مزنة بنت عبد الرحمن الأطرم -رحمها الله- وكان ذلك الزواج بداية مرحلة جديدة في حياة بيته؛ مرحلة امتلأت بالسكينة رغم مشقّة الأيام، وبالطمأنينة رغم غياب الوالد المتكرر من أجل لقمة العيش.

دخول والدتي مزنة إلى حياته لم يكن حدثًا عابرًا، بل كان نعمة ممتدة، وفتحًا من الله لا يزال أثره حيًا فينا إلى اليوم.

وأعترف أن الحديث عن والدتي مزنة صعب عليّ جدًا. أشعر بثقلٍ في صدري كلما هممت بالكتابة عنها، ليس لأن الذاكرة تخونني، بل لأنها تثقل بما فيها من ملامحها، وصوتها، ورائحتها، وطريقتها في إدارة البيت بحنان لا يشبه حنان أحد. كنت كلما حاولت أن أدوّن عنها كلمة، شعرت كما لو أني أحاول أن أقبض على ظلّ نورٍ موجود لكنه لا يُمسَك. أردت أن أكتب عنها كثيرًا، لكن الوجع يأخذ بيدي كلما اقتربت، فأكتفي بما يخرج من القلب دون ترتيب ولا تكلّف.

كانت الوالدة -رحمها الله- امرأة إذا حضرت تغيّر المكان، وإذا غابت بقي أثرها فيه. لم تكن كثيرة الكلام، لكن حضورها كان أبلغ من كل خطاب. في هدوئها أمان، وفي صمتها طمأنينة، وفي خطواتها الصغيرة معنى كبير من الرحمة. كانت تملك قدرة عجيبة على جعل البيت خفيفًا مهما أثقلته ظروف الحياة. وكانت تعرف كيف تلمّ شعث

الأيام دون أن تُظهر شيئًا من تعبها، وتبسط الطمأنينة بيننا بيدٍ تحمل الكثير وتعطي الكثير دون أن تتذمر أو تشتكي.

غياب والدي عنها للعمل في الكويت أو ترداده للتجارة بين البلدان رغم صغر سنها لم يكن يشعر عائلتها الصغيرة في ذلك الوقت بالوحدة، لأن أمي كانت تملأ الفراغ كلّه وحدها.

كانت تقف بين مسؤوليات كثيرة، وتنهض بما يفوق طاقتها، ومع ذلك تبقى الابتسامة لا تفارق وجهها. كانت إذا رأت أحدَنا حزينًا، مسحت عنه الهمّ قبل أن يسأله أحد. وإذا رأت منّا تعبًا، حملت عنه ما يستطيع وما لا يستطيع. وكأن الله وضع في صدرها قلبًا يكفي لعائلة كاملة.

وما زالت التفاصيل الصغيرة عالقة بذاكرتي: صلاتها في الليل وعملها قبل آذان الفجر ورائحة القهوة في الصباح وهي تعدّها قبل أن يستيقظ أحد، صوتها الخافت وهي تدعو لنا واحدًا واحدًا، انحناءتها حين تصلح شيئًا انكسر، طريقة وضعها ليدها على رأس من يمرض منا... تلك اللمسات التي لا تُنسى، والتي تبقى في العمر مهما تغيّرت الأيام.

وحين رحلت أمي في ١٣شوال ١٤٣٣هـ، شعرت أن روحي ارتحلت معها، حاولتُ كثيراً أن أكتب لأخفّف الألم، فكتبتُ مقالًا طويلًا بعد عشر سنوات أسميته "**ركام الحاذية ومزنة رحمها الله**"(١) لم يكن مجرد رثاء، بل كان محاولة يائسة كنت أكتب وأتوقف، أبكي وأعود، أحاول أن أستجمع كل ما أستطيع، ومع ذلك بقي كثيرٌ من التفاصيل لم أكتبه، لا لأنني نسيتها، ولكن لأنني لم أستطع أن أضعها على الورق. بعض الذكريات أكبر من أن تُكتب، وبعض المشاعر أعمق من أن توصف، وبعض الألم لا يُترجم إلى جمل مهما حاولت.

كنت كلما أمسكت القلم شعرت بأن الكلمات تخونني، وأن الحديث عنها يتجاوز حدود اللغة ويصل إلى حدود القلب. وكيف يُكتب قلب عاش نصف حياته بوجود الأم، ونصفه الآخر بذكراها؟ كيف أصف امرأة كانت الوطن الأول، والسند الدائم، والعين التي ترى دون أن تتكلم، والقلب الذي يحب دون أن يطلب شيئًا لنفسه؟

---

(١) رابط المقال:
https://bit.ly/٤qLpxw٦

رحلت أمي وبقي أثرها حيًا فينا. بقي في طريقة تعاملنا، في دعائنا، في نظرتنا للحياة، في حرصنا على بعضنا، في كل عادة صغيرة كانت تصنعها بعفوية. بقي في البيت الذي كان يضيء بدخولها، وفي الأيام التي ما زالت تحمل شيئًا من روحها رغم مرور السنين. وأقولها بصدق: مهما أطلت الكتابة عنها فلن أبلغ ما تستحقه من وصف، ولن أستطيع أن أحدد حجم الفراغ الذي تركته. ما زلت أشعر أن الحديث عنها وجعٌ يتجدد، وأن أقصى ما أملكه هو كلمات تخرج من قلبٍ يحب، لا من قلمٍ يكتب.

رحم الله أمي مزنة بنت عبد الرحمن الأطرم، وجعل قبرها نورًا وطمأنينة، وجمعنا بها في مستقر رحمته ووالديها ومحبيها.

هذا وقد أنجبت الوالدة منه: أختي فاطمة رحمها الله، والأخ الوالد الشيخ أ. د. فالح حفظه الله، والأخ عبد الرحمن رحمه الله، والأخ د. سليمان رحمه الله، والأخ الشيخ عبد العزيز، والأخت سارة، والأخت منيرة، والأخت حصة حفظهم الله، والأخ قاسم رحمه الله، والأخت أ. د. أمل،

وصغيّر، والأخ الشيخ خالد، حفظهم الله وبارك فيهم وأصلح لنا ولهم النية والذرية.

الوالد -رحمه الله- والعمل في الاحتساب (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر):

ودخلت سنة ١٣٧٤هـ وبعدها انتقل الوالد للعمل بالمنطقة الشرقية، فعيّن رئيساً لهيئة بقيق ثم الظهران والثقبة، وكان ذلك الوقت الشيخ سليمان بن عبيد -رحمه الله-[١] رئيسًا لمحاكم الظهران، ومكلف بالإشراف على هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمنطقة الشرقية. ومما يُذكر في سيرة الشيخ ابن عبيد -رحمه الله- أن أول قضاء تولّاه كان في الزلفي عام ١٣٦٠هـ، خلفًا للشيخ ابن سعد، رحمهم الله جميعًا.

وقد أدركتُ الشيخ سليمان -رحمه الله-في مجلس العم عبد الرحمن -رحمه الله- فبينهما مصاهرة، إذ كان الشيخ سليمان زوجًا لابنة العم عبد الرحمن عمشا (أم أحمد)،

(١) انظر: تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي (٤/١٤٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد خلّف منها أبناءً وبناتٍ بررة يحملون مؤهلات عليا، وكان الشيخ سليمان -رحمه الله- فيما رأيته قليل الكلام حسن السمت.

وللشيخ -رحمه الله- مؤلفات، وقد ترجم له الباحث محمد الزهراني في ضمن كتابه "**تاريخ القضاء والقضاة في المملكة**" وهي من أجمع التراجم التي رأيتها عنه.

وكان العم عبد العزيز -رحمه الله- وقتئذ قد كلف أيضا برئاسة هيئة الثقبة والظهران.

تأثر الوالد بشخصية الشيخ عمر بن حسن رحمه الله رحمة واسعة:

الشيخ عمر بن حسن بن حسين بن على بن حسين بن محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- هو الرئيس العام للهيئات ذلك الوقت، ومن أبرز أئمة الدعوة، وكان خطيبًا متميّزًا، قويَّ الحُجّة، متمكّنًا من نواصي البيان، إذا تكلّم أصغت له القلوب قبل الأسماع، فلا يُملّ حديثه، ولا يُسأم كلامه، لما اتّسم به من صدق العبارة وقوة التأثير.

ومنذ عنفوان شبابه ظهر على شخصيته الحزم والفطنة، وكانت الحِسبة في تاريخ المسلمين لا يتولاها إلا من جمع الغيرة على الدين مع الحكمة والبصيرة. فلما رأى فيه الإمام عبد الرحمن الفيصل -والد الملك عبد العزيز-رحمهم الله- دلائل الفطنة، وشواهد الأمانة، وقوة الغيرة، ولاه مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الرياض عام ١٣٣٦هـ، مساعدًا للشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف، وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره -كما نقل- فقام بالمهمة قيام الثابت الواثق.

وقد اتّسم بالحزم والصرامة في أداء واجبه، فكان سببا في استقامة كثير من الناس. هذا وقد تعرّف عليه الوالد -رحمه الله- في الرياض، وكان كثيرًا ما يحدّثنا عنه، ويذكر كيف تأثّر به في فهم معنى الحِسبة؛ لا بوصفها شدّة مجرّدة، بل مسؤولية تُقام بالعدل، وتُحفظ بالحكمة.

وكان يقول لنا: "إنه مع قوة شخصيته إلا أنه لم يكن قاسيًا ولا فظًّا، بل كان رفيقًا بالمشايخ، مُجِلًّا لهم، قريبًا من طلاب العلم، يُحسن الاستماع إليهم، ويحتوي الصغار منهم،

فيعاملهم بتربية وحلم، ويغرس في نفوسهم الهيبة المقرونة بالمحبة. فتعلم الوالد منه أن الحزم إذا انفصل عن الرفق أفسد، وأن الشدة إن لم تُضبط بالعدل انقلبت غلوًّا، وأن خير الأمور ما اتزن فيه الميزان".

ثم ولاه الملك عبد العزيز -طيب الله ثراه- رئاسة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نجد ثم المنطقة الشرقية عام ١٣٥٤هـ، فاستمر في هذا المنصب حتى وفاته، وقضى في خدمة هذه الشعيرة ما يقارب خمسين عامًا. وكان عمله شاهدًا جليًّا على عظيم منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بناء المجتمع والدولة؛ إذ حرص الإمام عبد الرحمن وابنه الملك عبد العزيز -رحمهما الله- على إقامة هذه الفريضة، وأسّسا لها جهازًا مستقلًا قبل كثير من مؤسسات الدولة، إدراكًا منهما أن خيرية الأمة ورفعتها إنما تكونان بقيامها بهذه الشعيرة، كما قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. (١)

(١) [آل عمران: ١١٠]. شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفي تلك السنين ظل الوالد -رحمه الله- يتابع أخباره ويستحضر مواقفه، فزاد رسوخ تلك المدرسة في نفسه؛ مدرسة الحزم بلا ظلم، والشدة بغير قسوة، والهيبة التي يصنعها العدل لا الخوف، فكان أثره ممتدًّا في الرجال قبل الأنظمة، وفي النفوس قبل الأوراق.

وتوفّي الشيخ عمر -رحمه الله- ليلة الأحد الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٩٥ للهجرة النبوية، عن عمر ناهز ستةً وسبعين عامًا، بعد حياةٍ حافلة بالبذل والقيام بالأمانة. وخلّف أثرًا علميًّا كريمًا، من أبرزِه: مجموع رسائل وأجوبة علمية وُجّهت إليه من بلدان نجد وغيرها، جُمعت في ثلاث مجلدات[١]، تشهد بسعة علمه، وحسن فقهه، وصدق نصحه، رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن دينه وأمته خير الجزاء.

(١) انظر: مجموع رسائل الشيخ العلامة المحتسب عمر بن حسن بن حسين آل الشيخ ١٣٩٥ هـ، إعداد د. ناصر بن سعود بن عبد الله السلامة، (ص:٢٠٥).

عودة الوالد إلى الزلفي والعمل في دار الأيتام فيها:

وفي عام ١٣٧٦هـ كلّف الشيخ عبد الله بن عبدان -قاضي الزلفي- بأمرٍ من سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم -مفتي عام المملكة آنذاك رحمهما الله- العمَّ الشيخ عبد الرحمن بن فالح -رحمه الله- بافتتاح دار الأيتام.

وقد شارك في هذا العمل الخيّر كلٌّ من الوالد والعم قاسم، وأسهموا جميعًا في تأسيسها والقيام على شؤونها، في صورةٍ مشرِّفة من التعاون على البرّ والإحسان.

ممّا جاء في وصف تلك الدار على لسان الدكتور صالح الحمد -في حديثٍ مطوّل يستحضر تفاصيل المرحلة ويكشف عمق أثرها- ما يبيّن عِظَم تلك التجربة وأثرها الإنساني والتربوي، إذ ذكر الدكتور صالح أن الناس في ذلك الوقت لم يدركوا جميعًا أبعاد هذا المشروع، فكثُر الجدل حول الدار بين مؤيّدٍ استبشر خيرًا بما ستوفره من رعاية شاملة، ومعارضٍ خشي المجهول وساء ظنه، حتى شاع بين بعضهم أن الغاية منها إعداد الطلاب للعسكرية، وهي أقوال

صدرت عن جهلٍ بحقيقة المقصد، إذ سرعان ما تكشّف للجميع أن الدار لم تكن إلا مدرسة للحياة الكريمة والانضباط والتأهيل العلمي والأخلاقي.

ويمضي في وصفه مؤكدًا أن الدار كانت تطبق نظامًا داخليًا منضبطًا، يجمع بين التعليم النظامي والمعيشة المنظمة، حيث وفرت للطلاب ثلاث وجبات يومية متكاملة، وكسوة شتوية وصيفية، وسكنًا منظّمًا بأسِرّة مهيأة، وخدمات غسيل وطبخ، في زمنٍ كان فيه كثير من الناس يمر عليهم اليوم واليومان دون طعام، بسبب شدة الظروف وقلة الموارد، فكانت تلك الدار نقلةً هائلة في حسّ الكرامة الإنسانية قبل مجرد سدّ الحاجة.

كما فصّل الدكتور صالح في يوم الدار الدراسي، إذ يبدأ منذ الصباح الباكر بتعليم العلوم الشرعية واللغة والخط والحساب، على أيدي معلمين مخلصين، ثم تنتظم الصلوات والطعام والراحة والأنشطة الرياضية والثقافية والتمثيلية، في بيئةٍ تربوية متكاملة تصوغ شخصية الطالب

علميًا وسلوكيًا ونفسيًا، وتغرس فيه النظام والاعتماد على النفس.

ويشير كذلك إلى أن الدار كانت قائمة على كادر متكامل؛ من مديرين ومعلمين وأئمة وطباخين وغسالين ومراقبين وحراس، يعملون جميعًا بروح المسؤولية، مما جعل الدار أشبه بمؤسسة تربوية أنموذجية بمعايير ذلك الزمن، لا مجرد مأوى مؤقت.

ويختم شهادته بالإشارة إلى أن الدار استمرت نحو ثلاث سنوات، ثم صدر قرار بنقلها -مع غيرها- إلى المدن الكبرى كالرّياض، نتيجة لظروف تنظيمية طارئة، فانتقل غالبية الطلاب والموظفين، وواصل كثير من أولئك الطلاب مسيرتهم التعليمية حتى تقلّدوا مناصب رفيعة في الدولة، في دلالة واضحة على عمق الأثر وبُعد النظر في إنشاء تلك الدور.

وتبقى -كما عبّر الدكتور صالح- دار الأيتام بالزلفي صفحةً مضيئة في تاريخ الرعاية الاجتماعية بالمملكة، وشاهدًا حيًّا

على عناية القيادة بالإنسان قبل البنيان، وعلى أن ما أُسس بإخلاصٍ وصدقٍ يثمر أثرًا يبقى وإن تغيّر الزمان[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الرحمن ومحمد الفالح
نجد — الزلفي
المملكة العربية السعودية

Abdulrahman & Moh'd. Alfalih
NAJD - ALZULFI
SAUDI - ARABIA

عدد ٨٣٧٥

التاريخ ٢٢/٤/١٣٧٦
Date 9-11-1956 195

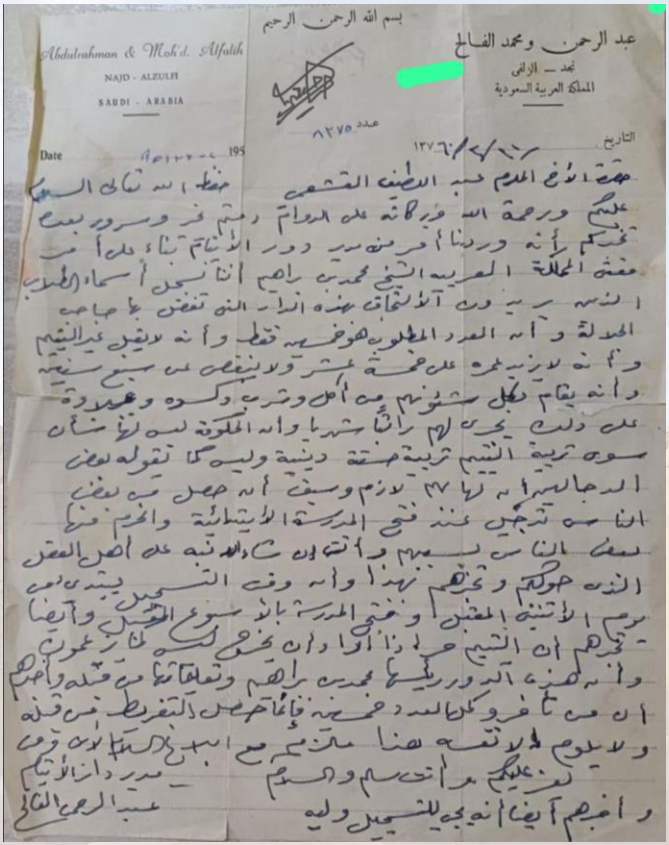

حضرة الأخ المكرم [illegible] القشعمي حفظه الله تعالى السلام
عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام دمتم في سرور [illegible]
نخبركم أنه وردنا أمر من مدير دور الأيتام بناء على أمر
مفتش المملكة العربية الشيخ محمد بن [illegible] أننا نسجل أسماء الطلاب
[illegible] الالتحاق بهذه الدار التي [illegible]
[illegible] وأن العدد المطلوب هو خمسين فقط وأنه لا يقبل غير اليتيم
وأنه لا يزيد عمره على خمسة عشر ولا ينقص عن سبع سنين
وأنه يقام بكل شؤونهم من أكل وشرب وكسوة و[illegible]
على ذلك يجري لهم راتبًا شهريًا وأن المكلوفة ليس لها شأن
سوى تربية اليتيم تربية [illegible] دينية وليس كما تقوله بعض
[illegible] لازم [illegible] أنه حصل من بعض
الناس تدخل عند فتح المدرسة الابتدائية [illegible]
[illegible] الناس [illegible] على أهل [illegible]
الذين حولكم وتخبرهم بهذا وأن وقت التسجيل يبتدي من
يوم الاثنين المقبل وفتح المدرسة بأول شهر [illegible] وأيضًا
تخبرهم أن اليتيم [illegible]
[illegible]
[illegible]
ولا يلوم [illegible] هنا [illegible]
[illegible] عليكم [illegible] والسلام
مدير دار الأيتام
عبد الرحمن الفالح
وأخبرهم أيضًا أنه يجب التسجيل [illegible]

وثيقة العمل المشترك بدار الأيتام

---

(١) مقال بجريدة الجزيرة https://bit.ly/46UGJnZ

وعاد الوالد -رحمه الله- تعالى إلى الرياض ١٣٧٧هـ ليعمل في بيت المال فترة مؤقتة ثم استقال -رحمه الله- من الوظائف ليبدأ مرحلة جديدة من حياته -رحمه الله- في العمل بالتجارة.

مرحلة التجارة في حياة الوالد رحمه الله:

اتَّجَر الوالدُ -رحمه الله- بين الرياض والكويت والحجاز، وحين تُستعادُ صورُ تلك المرحلة التي سبقت الطفرة الاقتصادية في الخليج، وتُقلب صفحاتها بما فيها من كفافٍ وبساطة، يبرز جيلٌ من الرجال لم تُصنع مكانتهم بكثرة المال، بل بصدق المعاملة، ولم تُبنَ تجارتهم على وفرة البضائع، بل على وفرة الخُلُق. ومن أولئك الوالد -رحمه الله- الذي ارتبط اسمه بتجارة الساعات والأقلام الفاخرة، متنقّلًا بين الكويت والمملكة العربية السعودية وخاصة الرياض والحجاز خلال عقدي الستينات والسبعينات

الميلادية، (١٣٨٠ - ١٤٠٠هـ) في زمنٍ كانت التجارة فيه سفرًا ومشقة، وكانت السمعة فيه رأس المال الأثمن.

دخل -رحمه الله- هذا الميدان مدفوعًا بعزيمةٍ صادقة في طلب الرزق الحلال، وبفطرةٍ تدرك أن السوق لا يُفتح بكثرة المعروض، بل يُفتح بصدق اللسان وأمانة اليد. فكان يرى أن الصفقة إن ربحت مالًا وخسرت ثقةً فهي خاسرة، وأن التاجر إن حفظ سمعته فقد حفظ تجارته كلّها. ومن هنا عُرف بين أهل السوق بوضوح المعاملة، فلا يُخفي عيبًا، ولا يُجمّل نقصًا، ولا يلبّس على مشترٍ أمرًا. إن سُئل عن ساعةٍ بيّن حالها، جديدةً كانت أم مستعملة، أصليةً أم مجدّدة، بل ربما صرف المشتري عن سلعةٍ إن رأى غيرها أنفع له. وكان يردّد في مجالسه أن الربح يذهب وتبقى البركة، وأن البركة لا تنزل على بيعٍ شابه غشّ أو تدليس.

اتجه -رحمه الله- إلى تجارة الساعات السويسرية التي كانت آنذاك لها قيمة معتبرة، وكان من أبرز ما يتعامل به: ساعات "وست إند"، وهي من الشركات العريقة التي تأسست في أواخر القرن التاسع عشر، وازدهر انتشارها في الشرق

الأوسط والخليج. وقد لاقت رواجًا واسعًا بين أهل الخليج، حتى غدت من الساعات المحببة لدى المسافرين وأهل البرّ، لما تتحمّله، وكان الوالد يحرص على جلبها وعرض موديلاتها وشرح مزاياها لعملائه.

ولم تقتصر تجارته على الساعات، بل وسّع نشاطه ليشمل الأقلام الفاخرة، وعلى رأسها أقلام باركر، تلك العلامة الأمريكية التي تأسست سنة ١٨٨٨م، وذاع صيتها عالميًا لجودة صناعتها وأناقة تصميمها وسلاسة الكتابة بها. وكان القلم الفاخر في تلك المرحلة هديةً رفيعة المقام، يُقدَّم في المناسبات، ويُقتنى توقيرًا للمناصب والوجاهات، فجمع - رحمه الله- بين تجارةٍ تضبط الوقت، وأخرى توثّق الكلمة، في صورةٍ بديعة تجمع بين دقة الحساب وهيبة التوقيع.

وقد كان دكانه محل الساعات في البطحاء مع جملة من تجار الساعات في ذلك الوقت.

وكانت أسفاره بين الكويت والسعودية جزءًا أصيلًا من حياته العملية، لا يثنيه عنها طول طريقٍ ولا وعثاء سفر. فالطرق آنذاك شاقة، والتنقّل متعب، والبضائع تُحمل

بحذر، غير أنه كان يرى في ذلك كله ضريبة السعي، ومدرسة التجار الأولى. وفي تلك الرحلات لم يكن يحمل الساعات والأقلام وحدها، بل كان يحمل معه صدقه، حتى سبقته سمعته إلى الأسواق، وصار اسمه معروفًا بين تجار الساعات في الكويت.

ومن أبرز من تعامل معهم في الساعات "بهبهاني" أحد البيوت التجارية المعروفة في مجال الساعات بالكويت، وقد نشأت بينهم علاقة تجارةٍ تحولت مع الأيام إلى صداقةٍ ومودّة. فكان -رحمه الله- إذا قدم الكويت زارهم، وتبادل معهم شؤون السوق، في صورةٍ تمثّل طبيعة علاقات التجار في ذلك الزمن، حيث تمتزج الصفقة بالمجلس، والتجارة بالمودة.

وفي تلك المرحلة برز صديقه الحميم عبد العزيز الفراج أبو فراج، الملقب بـ"الصاحب" وهو لقبٌ لم يكن عابرًا، بل جاء وصفًا دقيقًا لعلاقته بأصحابه وشد وفائه لهم. فقد جمعتهما الأسفار، وتقاسما مشقة الطريق، وتعاونا في بعض الأعمال، وكان كلٌّ منهما ظهيرًا للآخر، إن ضاقت

الحال اتّسعت بالمؤازرة، وإن حضرت صفقة حضراها مشورةً وتدبيرًا. حتى إن بعض من يعرفهما كان إذا سأل عن أحدهما ذُكر الآخر، في صورةٍ نادرة من صداقات التجار التي لم تُفسدها المصالح حتى امتدت علاقتهما بالمصاهرة فقد تزوج أخي عبد الرحمن -رحمه الله- من لولوة ابنة الشيخ عبد العزيز -رحمه الله- واستمرت المصاهرة بين الأسرتين.

وأذكر أني سألت الوالد -رحمه الله- مرة: في السابق إذا ذهبت للكويت أين كنت تسكن؟ قال: أنام بالصيهد (ساحة كبيرة) أو عند "الصاحب" فهو من أخص من أعرف.

ومن المواقف التي بقيت حيّة في ذاكرة الأسرة حادثةٌ وقعت في إحدى زيارات الكويت، حين اجتمع الوالد مع "بهباني" وأظن معهما "الصاحب" على مائدة غداء في مطعم أحد الفنادق المعروفة. كانت جلسةً عمل، يتبادلان فيها الحديث حول التجارة وأحوال السوق، حتى وقع ما لم يكن في الحسبان. فقد تعرّض بهباني لغصّة مفاجئة أثناء الطعام،

إذ علِق ما أكله في حلقه، واشتدّ عليه الاختناق، وتغيّر لونه، وبدا عليه خطرٌ حقيقي.

وفي تلك اللحظة الحرجة نهض الوالد -رحمه الله- مسرعًا، مدفوعًا بشهامة الموقف، فأحسن التصرّف، وباشر إسعافه بما يعرفه من وسائل النجدة، وظلّ إلى جواره حتى زالت الغصّة، وعاد إليه النفس بعد لحظاتٍ ثقيلةٍ مشحونة بالقلق. كان موقفًا إنسانيًا خالصًا، لا صلة له بتجارةٍ ولا صفقة، لكنه كشف معدن الرجل عند الشدائد.

ولم ينسَ بهباني ذلك الجميل، بل ظلّ أثره في نفسه، حتى قدّم للوالد ساعةً فاخرة هدية تقديرٍ وعرفان، عربون وفاءٍ لموقفٍ لا يُنسى. فغدت تلك الساعة رمزًا لعلاقةٍ تجاوزت حدود السوق، وشاهدًا على زمنٍ كانت فيه المواقف تُحفظ كما تُحفظ الصفقات.

وإذا تأمّلنا خيوط هذه السيرة مجتمعة، وجدنا أن السرّ الذي جمع تجار تلك المرحلة هو "**الصدق**" كما ذكر الأخ الشيخ فالح في إحدى اجتماعات العائلة؛ به كسب الوالد ثقة العملاء، وبه حاز ثقة كبار التجار، وبه دامت

صداقاته، ومنهم "الصاحب" وبه تعمّقت علاقته ببيت "بهباني" وغيره من بيوت وعوائل أهل الكويت. فلم يكن يبيع ساعةً فحسب، بل كان يحمل سمعته حيثما ارتحل.

وأثناء تلك المرحلة في عام ١٣٨٣ -١٣٨٤هـ تزوج الوالد زواجه الثاني من الخالة حصة بنت فايز الفايز -حفظها الله- وهي نحسبها من الصالحات والله حسيبها، ورزق منها بأبناء وبنات ولله الحمد والمنّة، وكان استقرارها في الزلفي واستقرار الأشقاء والشقيقات مع الوالدة -رحمها الله- في الرياض.

وقد أنجبت الخالة حصة حفظها الله: الأخت فايزة، والأخت بدرية، والأخت لولوة، والأخ الأستاذ فهد، والأخت زينب، والأخت سعاد، والأخت هند، والأخت أسماء، والمشايخ الكرام فارس وسلطان وبسام، حفظهم الله وبارك لنا ولهم في النية والذرية.

سيل مكة والطواف سباحة:

كانت تجارة الوالد غالبا بين الكويت والرياض ومكة، وقد انهمر مطر غزير في مكة كان الوالد -رحمه الله- وقتها في الحرم مع الشيخ سليمان بن عبيد رحمه الله[1]، يقول الوالد رحمه الله: "أذكر يوم الأربعاء ٤ ذو القعدة ١٣٨٨هـ، وكأنّه ماثلٌ أمامي إلى اليوم. كنتُ في الحرم عند الصفا، ومعي الشيخ سليمان، ننظر إلى السيل وهو يندفع حتى غمر المطاف. وبينما نحن نتابع المشهد، التفت إليّ الشيخ سليمان وقال: لو طفتَ سباحةً لكانت عبادةً نادرة، ويُرجى أن يعظم أجرها. ابتسمتُ له من هول الموقف، والماء يرتفع والناس بين دهشةٍ وخوف. وبقيت تلك اللحظة عندي من أعجب ما شهدت في حياتي، لا يمكن أن أنساها".

ولم يذكر الوالد -رحمه الله- أطاف سباحة أم لا؟ وإن كان عادة مشايخ نجد لا يتحدثون عن عباداتهم.

---

(١) سبق ذكره، وكان وقتها الشيخ سليمان -رحمه الله- رئيسا لمحكمة مكة.

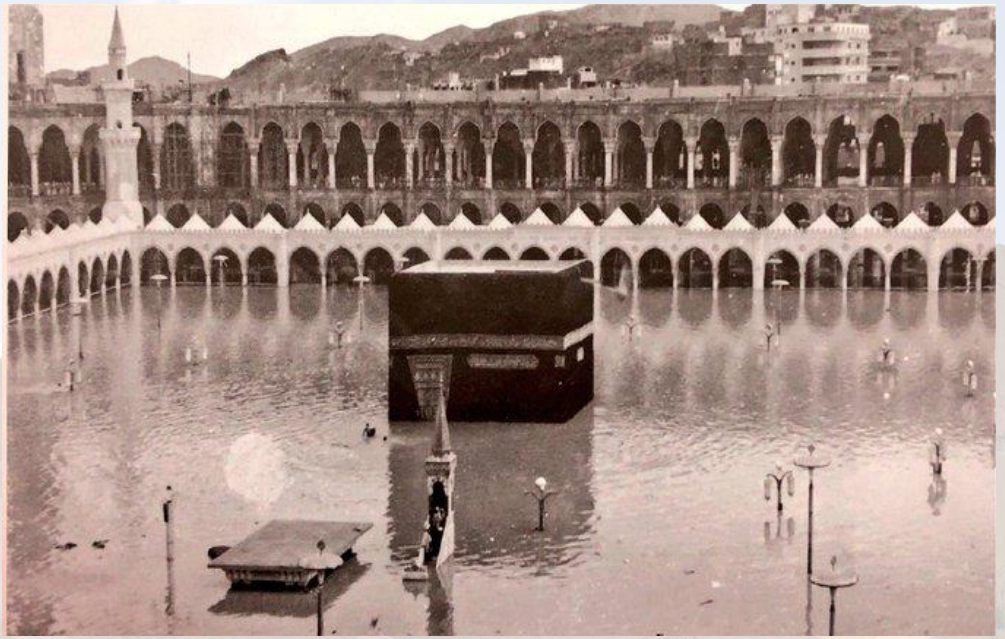

صورة يعتقد أنها لـ "سيل مكة ١٣٨٨هـ" مأخوذة من الشبكة

صورة من خبر جريدة عكاظ حول "سيل مكة ١٣٨٨هـ"

سمو الأمير مشعل يشرف بنفسه على أعمال الانقاذ في مكة المكرمة

تنظيف المسجد الحرام من مياه السيول وإعادة الشوارع إلى طبيعتها

مكة المكرمة – اهتم حضرة صاحب السمو الملكي الامير مشعل بن عبد العزيز امير منطقة مكة المكرمة بالاشراف شخصيا على اعمال الانقاذ في شوارع مكة والطريق الى جدة .. ونزل سموه الى الشوارع وأمر بتحشيد كافة الامكانيات لشفط المياه من المسجد الحرام .. وبذل الجهود اللازمة للانقاذ ..

@SaLemMALmatrafi

وقد شوهد سموه يتفقد الاضرار الناتجة عن الامطار والسيول التي اجتاحت مكة المكرمة صباح يوم الاربعاء .. بعد ان استمر هطول الامطار عليها بضع ساعات ..

وقد رافق سمو الامير مشعل خلال هذه الجولة سعادة الشيخ ابراهيم بن ابراهيم وكيل امارة منطقة مكة المكرمة .. وسعادة السيد احمد مجاهد وكيل وزارة الحج والاوقاف والشيخ صالح قزاز وكيل ادارة مشروع توسعة الحرم المكي والشيخ عبدالله بن صديق وكيل امانة العاصمة والشيخ غازي بن طافر مدير المشروع بالنيابة والزعيم يوسف دانش مدير شرطة العاصمة والعقيد جابر عبد الحفيظ مدير مرور مكة وعدد آخر من المسؤولين وضباط الامن العام ..

وقد وقعت عدة حوادث بسيطة منها انهيار عدد من المنازل القديمة .. وتقلب بعض السيارات التي جرفتها مياه السيول .. وقد سارعت فرق مديرية الدفاع المدني بالقيام بأعمال الانقاذ .

لما امر باحضار عشرين موتورا من جدة لتفريغ الحرم من المياه .. وقد بذل سموه والمسؤولين معه جهودا كبيرة في اعمال الانقاذ .

هذا وقد تدفقت مياه السيول القادمة من طريق العشر على طريق مكة – جدة .. بشكل لم يسبق له مثيل .. وقد سارع المسؤولون في قلم المرور بوقف حركة السير بين مكة وجدة ، نظرا لقوة السيل .. ثم اعيد فتح الطريق في الساعة الحادية عشرة من عصر يوم الاربعاء .. ولكن الرمال والحجارة كانت قد غطت خط الاسفلت .. ويجرى الآن ازاحة الاتربة عن الطريق .. ونرجو من المرور تسيير دورية لمراقبة سير السيارات

عكاظ ١٣٨٨هـ

مأخوذة من الشبكة

وإنّ الناظرَ حالَ تطوّرِ البناءِ في الحرمين الشريفين، وما طرأ عليهما من خدماتٍ لم تكن معهودةً في ذلك الزمن، ليدركُ بعين البصيرة قبل بصر العيان حجمَ العناية التي أولتها المملكة العربية السعودية لهذين المقامين العظيمين، ويستشعرُ عِظَمَ المسؤولية التي اضطلعت بها في خدمة بيت الله الحرام ومسجد رسوله ﷺ.

فجاءت التوسعات المتتابعة -بحمد الله- لتستوعب الملايين، وتُيسّر الطواف والسعي، وتُسهّل الصلاة والاعتكاف.

وإذا تأمّل المرء ما أُقيم من ساحاتٍ فسيحة، وممراتٍ منظّمة، وأنظمةٍ دقيقة لإدارة الحشود، ومشروعاتٍ خدميةٍ متكاملة من تكييفٍ وإنارةٍ ونظافةٍ وتصريفٍ للسيول ومياه زمزم المباركة، أدرك أنّ الأمر لم يكن ارتجالًا، بل تخطيطًا عميقًا بحمد الله ورؤيةً بعيدة المدى، تستحضر عظمة المكان وحرمة الزمان، ﴿**ذلك ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**﴾.[1]

(١) [الحج: ٣٢].

فنسأل الله أن يحفظ الحرمين، وأن يديم عليهما الأمن والأمان، وأن يجزي من خدمهما خير الجزاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ودخلت التسعينيات الهجرية، وكان سكن الوالد في "غميته" بالرياض.

صورة أحد بيوت الوالد في غميته

وفي التسعينات الهجرية زاد نشاط الوالد التجاري -رحمه الله- واستمر فيه وزادت علاقاته.

وفاة العم قاسم رحمه الله:

توفي العم الشيخ قاسم -رحمه الله- في عصر يوم الثلاثاء ٣-٤-١٣٩٧هـ وقبله شقيقتي فاطمة -رحمها الله- توفيت قبل العم قاسم -رحمهم الله- بأشهر، وكانت -رحمها الله- امرأة صالحة مثقفة عملت في التعليم سنيات عديدة، وكان أثر ذلك على الوالد والوالدة كبيرا حيث إن العم قاسم والوالد -رحمهم الله- سافرا معها للخارج لطلب العلاج.

ومما أصاب الوالد -رحمه الله- فصبر، وفاة كبرى البنات وهي للتو متزوجة ما أتمت سنة بعد زواجها إثر أخطاء طبية كما حكاها الوالد -رحمه الله- فكان أثر ذلك كبيرا عليه، ثم وفاة العضيد الشيخ قاسم -رحمه الله- فهما -العم قاسم والوالد- صديقان من أب واحد، أكثر من أخوين، لا يكاد يمر وقت من الأوقات التي عشتها مع الوالد -رحمة الله عليه- إلا ويمر ذِكرُ الشيخ العم قاسم على لسانه، فهو حاضر أغلب أحيانه في ذهنه ودعواته وصدقاته.. حتى قال لي مرة: **"عندما دفنّا قاسم -رحمه الله- لم أتخيل أنّي سأعيش**

بعده زمناً من شدة ما أجد عليه، لكن يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة". ا.هـ

ومن أعزِّ أصدقاء الوالد وأوثقِهم صلةً به، **العمُّ سليمان المحمد الفايز -رحمه الله-** ذلك الرجل الذي لم يكن مجرّد صاحبٍ في عَرَض الطريق، بل كان رفيقَ عمرٍ، وخلَّ ودٍّ، وأخًا اصطفته المواقف قبل أن تجمعه المجالس.

عرفه الوالد رجلًا تميّز بالكرم والجود والصدق والوفاء، خصالٌ اجتمعت فيه حتى قلَّ نظيرُه. كان كريمَ اليد والنفس، لا يتأخر عن نجدةٍ، ولا يتردد في معروف، وكأن العطاء عنده طبعٌ مفطور، لا تكلّف فيه ولا تصنّع. وإذا ذُكر الجود ذُكر معه؛ لما كان يبذله في صمتٍ، ويصنعه في خفاء، طلبًا للأجر، وصونًا للمروءة.

وقد شهدتُ له مع الوالد مواقفَ لا تصدر إلا من أفذاذ الرجال؛ يقف معه في الملمّات وقفةَ الصادق الوفي، يثبّت عند الشدّة، ويؤنس عند الضيق، ويشارك في الأفراح كأنها أفراحه. لم تكن صداقتهما قائمةً على المصالح العارضة، بل

على صفاء سريرة، ووحدة معدن، وتشابه نفسين تعارفتا على الخير فاجتمعتا عليه.

وكان -رحمه الله- صادق اللهجة، ثابت العهد، إذا قال فعل، وإذا وعد أوفى، لا يعرف التلوّن ولا تغيّر المواقف. وقلَّ أن يجتمع الصدق مع ذلك القدر من الوفاء إلا في رجالٍ نادرين، كان هو أحدهم.

ولمّا توفّاه الله قبل الوالد بنحو ثماني سنوات، كان لخبر وفاته وقعٌ بالغٌ في نفس الوالد؛ إذ فَقَد برحيله جزءًا من ذاكرته الحيّة، ورفيقًا طالما اقتسم معه هموم الحياة وأفراحها. تأثّر به تأثّرًا ظاهرًا، وبقيت ذكراه حاضرةً في حديثه لا تغيب؛ يذكر مواقفه، ويستعيد أيامه، وكأن الصداقة الصادقة لا يطويها الرحيل.

كان كلما جرى ذكر الأوفياء حضر اسم "أبي عبد العزيز" في مجلسه، وكلما مرّ موقفٌ يذكّر بمكارم الرجال ترحّم عليه، واستعاد شيئًا من سيرته. لم يكن الحديث عنه عابرًا، بل كان حديث محبٍّ فقد عزيزًا، وصديقٍ فقد سندًا.

وهكذا ظلّ أثره في نفس الوالد باقيًا؛ لأن الرجال العظام لا تنتهي صحبتهم بالموت، بل تبقى قيمهم حيّةً في القلوب، وتظلّ ذكراهم نورًا يُستضاء به.

فرحم الله العم سليمان المحمد الفايز رحمةً واسعة، وجمعه بمن أحبّ في دار كرامته، وجزاه عن وفائه وصداقته وخير مواقفه خير الجزاء، وأبقى له الذكر الحسن فيمن عرفه، فذلك ميراثُ الرجال الصادقين.

صورة في ربيع عام ١٤١٣هـ تجمع بين الوالد والعم سليمان المحمد الفايزوالأخ د. سليمان رحمهم الله

والأخ الشيخ أ.د فالح والأخ الشيخ خالد حفظهم الله

ومن أصدقاء الوالد المخلصين، والذين لازموه ملازمةً تكاد تكون يومية قبيل وفاته، الشيخُ الوقور **محمد بن سليمان الجارالله** رحمه الله رحمةً واسعة.

كان شيخًا صالحًا، ظاهرَ السمت، هادئَ الطبع، تلوح على محيّاه أماراتُ الطمأنينة، ويُرى في منطقه تَؤدةُ العلماء وحِلمُ الكبار أحسبه -والله حسيبه- ممن عمروا أوقاتهم بالذكر، وألسنتهم بالخير، وقلوبهم بمحبة الصالحين.

نشأت بينه وبين الوالد علاقةُ تقديرٍ عجيب، تجاوزت حدود الصداقة العابرة إلى أخوّةٍ صادقةٍ ضاربة الجذور. فقد تصادقا سنينَ عديدة، وتجاورا زمنًا طويلًا، فكان الجوار سببَ تواصلٍ دائم، وزياراتٍ لا تنقطع، حتى غدا حضوره جزءًا من يوميات الوالد، لا يكاد يخلّ به إلا لعذر.

كان إذا أقبل، أقبل ببشاشته المعهودة، وسلامه الحار، فيجلس مجلسَ الأنس والوفاء، وتصدر كلماته عن رجاحة عقلٍ وسداد رأي. وكان الوالد يأنس به أنس الأخ بأخيه،

ويرتاح لحديثه، لما يجده فيه من صفاء نفسٍ، وصدق مودّة، ونُصحٍ خالٍ من التكلّف.

ولم تكن صداقتهما مبنيةً على مصالحَ عارضة، بل على التقدير المتبادل، والوفاء الصادق، والاشتراك في محبة الخير وأهله.

فكم من موقفٍ شهده القريبون دلّ على عمق تلك العلاقة؛ تعاهدٌ في الزيارة، وتفقدٌ في المرض، ومواساةٌ في الشدائد، ومشاركةٌ في الأفراح والأتراح.

وقد تجلّى وفاؤه أصدق ما يكون في الأيام الأخيرة من حياة الوالد، إذ لازمه ملازمةً شبه يومية، يزوره، ويطمئن عليه، ويؤنس وحدته، في صورةٍ ناصعةٍ من صور الوفاء التي لا تُصطنع، بل تنبع من قلوبٍ صادقة.

وقد اختاره الله إلى جواره في شهر ربيع الآخر من عام ١٤٤١هـ، بعد حياةٍ عُرف فيها بالصلاح، وحسن السيرة، وطيب الذكر بين الناس.

رحم الله الشيخ محمد بن سليمان الجار الله، وجمعه مع الوالد ووالديهم في دار كرامته، وأجزل لهم المثوبة، وجعل ما كان بينهما من صداقةٍ صادقةٍ ووفاءٍ خالصٍ في موازين حسناتهما، وألحقنا بهم في مستقر رحمته غير خزايا ولا مفتونين.

ومن صفحات الوفاء التي يجب إذا ذكر الوالد ألا تُطوى، ومن الوجوه التي إذا ذُكرت حضرت معها معاني النبل والمروءة، صديقُ الوالد وجاره العزيز، **الشيخ الكريم العم عبد الله السلطان المشهور بـ(الصقعبي)** حفظه الله وأطال عمره على طاعته.

لم يكن جاراً فحسب، بل كان ظلاً وارفاً، وسنداً حاضراً، وقلباً مفتوحاً قبل أن تُطرق الأبواب. رجلٌ عُرف بالمواقف

التي لا تُنسى، وبالوقوف الصادق مع جيرانه وأصدقائه في الشدة قبل الرخاء، حتى صار اسمه مقروناً بالوفاء كما تُقرن المعاني بأهلها.

كان يعاملنا كأبنائه؛ ينصح بحب، ويعاتب بشفقة، ويفرح لفرحنا كأنما هو فرحه، ويحزن لحزننا كأنما يمسّه في خاصة نفسه. ما رأيناه إلا قريباً، ولا عهدناه إلا ثابتاً، كريم اليد، طيب القلب، حاضر الهمة.

نسأل الله أن يجزيه عن صداقته خير الجزاء، وأن يديم عليه الصحة والعافية، ويبارك في عمره وعمله، وأن يجمعنا به على الخير دائماً.

ومن أصدقاء الوالد الذين عُرفوا بالبر والإحسان، وكان مثالًا في الوفاء له: الشيخ أحمد الحمود المسعود حفظه الله؛ فقد تميّز بالسماحة، ولين الجانب، وحسن الخلق، وكان نعم الصديق الوفي، حفظه الله وبارك فيه وفي ذريته، وجزاه خير الجزاء.

وثمة أصدقاء للوالد كثر أوفياء رحم الله المتوفين وحفظ الأحياء وختم لهم بخير.

آخر ثلاثين سنة من حياة الوالد و انقطاعه للعبادة:

بعد مسيرةٍ امتدّت سنواتٍ طويلة من الكفاح الصادق، وطلب العلم، والعمل الدؤوب، مضى -رحمه الله- في دروب حياته بين الجدّ والاجتهاد، يطوي مراحلها بصبر المحتسب، وعزيمة المؤمن الذي يوقن أنّ ما عند الله خيرٌ وأبقى. تنقّل في تلك السنين بين الزلفي والرياض، وتخلّلتها فتراتٌ من التنقّل والانقطاع بين البيت والمسجد، غير أنّ قلبه ظلّ معلّقاً ببيوت الله، لا ينفكّ عنها شوقاً، ولا يبرحها حبّاً، وإن شغلته ظروف الحياة حيناً.

وكان -في تلك المرحلة- يجد في الأغنام سلوةً وسكينة، يأنس بقربها، وكأنّه يستروح في رعايتها صفاء النفس وهدوء الفطرة؛ وهي سِمَةٌ يعرفها من خبر بساطة القلوب

الصادقة. وقد شهدته -رحمه الله- قبل مرضه الذي توفّي فيه، على حالٍ من أجلّ أحوال الصالحين؛ إذ كان يختم القرآن كل خمسة أيام، لا يملّ تلاوةً، ولا يفتر عن تدبّر، كأنّ أنفاسه موصولةٌ بكتاب الله.

لم يكن يُسمع أذان مؤذّنٍ إلا وهو في طريقه إلى المسجد أو في صفّه، محافظاً على الجماعة، سابقاً إليها، محبّاً لعمارة بيوت الله. عُرف بطول القيام في جوف الليل، حيث خلوته بربّه ومناجاته التي لا يطّلع عليها إلا الله. وكان محبّاً للعلم وأهله، يجلّ العلماء، ويأنس بمجالسهم، ويغار غيرةً صادقة على محارم الله؛ فلا يرى منكراً إلا أنكره، ولا فجوراً إلا اشتدّ عليه، حازماً في الحق، صلباً في المبدأ.

جمع -رحمه الله- بين الهيبة والكرم؛ فكان وجيهاً في قومه، كريماً في عطائه، ينفق نفقة من لا يخشى الفقر، ثقةً بربّه، وحسنَ ظنٍّ بوعده. وكان مربّياً فاضلاً، يزرع القيم، ويغرس المعاني، ويعلّم بسَمْته قبل كلمته، وبحاله قبل مقاله. عُرف

بكثرة الحمد والثناء على الله في سرّائه وضرّائه، حتى في مرضه الأخير الذي توفّي فيه؛ فما سُمع منه لفظ تسخّط، ولا كلمة تضجّر، بل كان لسانه رطباً بالحمد، وقلبه مطمئنّاً بقضاء الله وقدره.

وكان -رحمه الله- يتردد بين الزلفي والرياض حتى آخر حياته رحمه الله.

مشاهداتي في صفات الوالد -رحمه الله- التي أدركتها:

حثه على الصلاة:

وقد ذكرت شيئاً من هذا في أثناء هذه الوريقات، كان الوالد -رحمه الله- شديد العناية بها، مستحضراً دائماً أنها أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة. وما سمعناه يوصي بشيء كما كان يوصي بها، ولا رأيناه يغضب لتقصير كما كان يغضب للتفريط فيها.

لم يكن حثّه عليها كلماتٍ تُقال فقط، بل حالاً يُرى؛ كان يقوم إليها قبل الأذان دائماً، كنا نراه يتهيأ لها بهدوءٍ وخشوع.

وكان لحياة الاحتساب التي عاشها أثرٌ بالغٌ في تعظيمه للصلاة؛ فقد كان يرى نفسه مسؤولاً أمام الله عن أهله ومن حوله، يستشعر قول النبي ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**».[1]

الكرم والإنفاق:

أدركت مجلس وبيت الوالد -رحمه الله- في الملز بدون قفل، وكنا إذا قمنا لصلاة الفجر نجد بعض الضيوف الذين قدموا ليلًا وناموا في المجلس لأنهم خبروا مجلسه مفتوحا خاصة من المعارف وبعض رجالات البادية الذين هم خارج الرياض.

وأدركته -رحمه الله- في كثير من الأيام وأحيانا شبه يومي يحضر الذبائح للضيوف، مع حفاظه على النعم المتبقية.

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وأدركته يقترض أحياناً من بعض معارفه ليقرض من طلب منه سلفةً.

ومن المواقف المؤثّرة التي بقيت راسخةً في الذاكرة، وتحمل دلالةً عظيمة على ما كان عليه -رحمه الله- من رحمةٍ ومروءة، ما وقع لي مرّةً حين أحضرتُ عاملاً كبيراً في السن يُدعى أحمد، من الجنسية اليمنية، لأتفاهم معه في إصلاح بعض الأعمال وترميمها في منزل الوالد.

وبينما نحن نتحدّث، جرى على لسانه ذكرُ أهل غميته (حي من أحياء الرياض القديمة)، ثم ذكر اسم الوالد، دون أن يعلم أنّي ابنه. فتوقّفتُ عند حديثه، وأصغيتُ باهتمام، فإذا به يقول متأثّراً :ذاك رجلٌ عجيب!

ثم أخذ يسترجع ذكرى قديمة مضى عليها -كما قال- ثلاثون سنة أو يزيد، فقال: كنتُ أعمل عنده ضمن عمّالٍ في منزله، وكان في طرف البيت قِلال -أو تنك- مملوءةٌ تمراً. فطمع أحد العمّال فيه، فجعل يأخذ منه خفيةً، ويرسله إلى بلاده.

ولاحظ الوالد نقص التمر، وعلم بالأمر، لكنه سكت وكأنّه لا يعلم.

قال أحمد: فلمّا قيل له: إنّ فلاناً يأخذ من التمر، قال: ما دعاه إلى ذلك إلا الجوع وحاجة أهله... اتركوه، ولا يقل أحدٌ له شيئاً. ثم أطرق لحظةً وقال: والله ما نسيتُ معروفه ذاك إلى اليوم.

عندها عرّفته بنفسي، وقلت له: أنا ابن ذلك الرجل الذي تحدّثت عنه. فبدا عليه التأثّر الشديد، وأخذ يترحّم عليه، ويدعو له، ويذكر من فضله ومواقفه ما يدلّ على عظيم ما تركه في قلوب الناس.

ورغبةً في إتمام هذا اللقاء، أدخلتُه على الوالد -رحمه الله- وهو على فراش المرض الذي توفّي فيه، وكان -وقتها لا يزال يستطيع الكلام- وإن كان المرض قد أضعف جسده وأثقل حركته. فلما دخل أحمد، نظر إليه الوالد متأمّلاً، ثم ما لبث أن عرفه بعد أن ذكّرته به، فارتسمت على وجهه ملامح

الأنس. وتقدّم أحمد، وقد غلبته دموعه، يسلّم عليه، ويذكر له قصّة التمر، ويقول: "ما نسيتُ صنيعك... ولا رحمتك بالعمّال"، فأجابه الوالد بصوته الهادئ، وكلماته التي خرجت من قلبٍ رحيم: الحمد لله... هذا واجب... الله يبارك فيك.

ودار بينهما حديثٌ يسير، استعادا فيه بعض الذكريات، وتبادلا الدعاء، في مشهدٍ امتزجت فيه مشاعر الوفاء بصدق الوداع؛ لقاءٌ قصيرٌ في زمنه، عظيمٌ في أثره، كأنّه ختام صفحةٍ من صفحات المعروف، شاء الله أن تُغلق على الذكر الحسن والدعاء الصادق.

خرج أحمد متأثّراً، يلهج بالدعاء، ويقول إنّ ذلك المعروف لم يفارقه طوال تلك السنين... وبقيتُ أنا أستحضر ذلك المشهد طويلاً، مستيقناً أنّ الإحسان لا يضيع، وأنّ ما يُزرع في قلوب الناس من رحمةٍ وعفوٍ يبقى حيّاً، ولو بعد عقود...

ومن المواقف التي تردّدتُ طويلًا في كتابتها، واستخرتُ الله فيها، رجاءَ أن يكون في ذكرها نفعٌ وعظة، ما وقع ذات مرةٍ حين اتصلت بوالدتي -رحمها الله- جارةٌ لنا قديمة، فقالت: إني رأيتُ في المنام شيخًا جليلًا، وقيل لي: إنه جدُّكم الشيخ، ثم قال لي: **"أخبري محمدًا أني أجدُ عطشًا"**، تنقلُ والدتي -رحمها الله- الرؤيا لوالدي، وكنت حاضرًا حينها، فسكت الوالد برهةً، وأطرق متأمّلًا، وكأنما استدعى من ذاكرته معاني بعيدة. ثم قام من فوره متجهًا إلى "البعيثة" شمال الزلفي، وغاب أياماً قبل أن يعود.

قال بعد رجوعه: لما سمعتُ الرؤيا تذكّرتُ برّادة ماءٍ كنتُ قد وضعتُها سبيلاً لوالدي -رحمه الله- فخشيتُ أن يكون أصابها خلل، فذهبتُ أتفقّدها، فوجدتُها معطّلة، فسعيتُ في إصلاحها حتى عادت موردًا للناس كما كانت.

ولم يكن موضع العجب عندي نفسَ الرؤيا، بقدر ما كان في امتداد أثر ذلك العمل؛ إذ بعد وفاة الوالد -رحمه الله-

بسنوات، أخبرني أحد الفضلاء أن للوالد معروفًا قديمًا عليه، وأنه أحبّ أن يكافئه بعد وفاته، فقام بإصلاح شبكة ماءٍ في إحدى القرى، وجعل ثوابها له، فهنا يتجلّى معنى قول الله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾[1]؛ إذ يمتدّ أثر الصدقة، ويجري نفعها، ويبارك الله في قليلها حتى يعظم.

ومن مكارم أخلاق الوالد، وما عُرف عنه من النجدة والإحسان: ما حدّثني به الوالد الأخ الشيخ فالح؛ إذ اشترى لأحد أقاربه بيتًا مع قلّة ذات يده، محتسبًا الأجر عند الله، مؤثرًا حاجة غيره على حاجته، عاملًا بقوله تعالى: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾.[2]

وكذلك فزعته مع قريبٍ له مرض في الزلفي، وهو شاب صغير لا والد له؛ فحمله إلى الرياض، ورافقه في علاجه، وسعى في تفريج كربته، وساهم في حل مشكلته الاجتماعية،

---

(١) [الحديد: ١١].

(٢) [الحشر: ٩].

قائمًا مقام الأب رحمةً وبرًا، يرجو ما عند الله، مصداقًا لقوله ﷺ: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**».[1]

ومن دلائل سماحته رحمه الله، وعظيم عفوه واحتسابه: أنّه في آخر حياته أسقط دينًا عن أحد تجّار الساعات الذين عملوا معه، مع شدّة حاجته إليه، وكان الدين يقارب ثلاثمائة ألف ريال، ومضت عليه سنوات.

فلم يحمله طول المدة، ولا عِظم المبلغ، ولا حاجته الخاصة، على التشديد أو المطالبة، بل آثر العفو والإبراء، راجيًا ما عند الله، ومؤمّلًا وعده سبحانه في قوله: ﴿**وأن تعفوا أقرب للتقوى**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) [البقرة: ٢٣٧].

(٣) [البقرة: ٢٨٠].

وهكذا كانت سماحته خلقًا راسخًا، لا تكلّفًا عارضًا؛ يعفو عند المقدرة، ويُبرئ الذمّة طلبًا لما عند الله.

وقد عُرف الوالد -رحمه الله- بحرصه على أعمال البرّ، ولا سيما ما كان منها في سُبل الماء والأوقاف، على ما مرّ به في حياته من تقلّب الأحوال؛ فقد عاش مراحل من الكفاف، وأخرى من السَّعة، ثم تُوفّي كفافًا، لم تغيّره الدنيا في إقباله ولا في إدباره، رحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن إحسانه خير الجزاء.

الهيبة والسمت والوقاروالنخوة:

شجاعته وهيبته وسمته -رحمه الله- لا يضاهيها إلا ما ندر من الرجال.. فقد كانت نظراته كفيلة بالعتاب ومدرسة للتربية، فما عهد عنه ضرب أحد من أبنائه أو رفع الصوت عليهم، وهو مع ذلك مهاب.. وكان يسعى دائما للإصلاح بين الناس والأسر.. وكانوا يجلونه ويقدرونه لحكمته رحمه الله.

ولقد شهدت في مجلسه بعض الأقارب الذين شكوا ظلم أقاربهم، فتحقق ثم غضب -رحمه الله- ثم اتصل بالقريب وقال: إذا لم ترجع مظلمة فلان اليوم وإلا سأكون وكيلا عنه في المحكمة، فرجع الحق لصاحبه في الحال.

وكان بعض الوجهاء يستشيرونه في بعض الملمات وكان له استشراف للمستقبل عجيب في المسائل المجتمعية، ومن ذلك: تعليم المرأة فقد كان مناصراً لتعليم المرأة بضوابطه بل وحرص على تعليم بناته، بل حتى في البعض المسائل الفقهية؛ فقد كان يقول ستستقر الفتوى بكذا وكذا لكن بعد زمن، ومن ذلك كثير من مسائل الحج كالرمي ليلا.

اهتمامه بالجار:

كان الوالد -رحمه الله- يرى الجار باباً من أبواب القرب إلى الله، وأن وصية النبي ﷺ بالجار ليست كلمات تُتلى، بل حياةٌ تُعاش ومواقف تُشهد.

ومما شاهدته: فزعته لجار لنا في "غميته" يسكن وحده، وكان الوالد حريصاً على صلته.

حتى عندما انتقل الوالد إلى الملز، وتباعدت الدُّور -لكن القلوب لم تتباعد- بقي الجار في منزله القديم، وحيداً وقد كبر به السن، وتثاقل عليه الليل والنهار، وكان الوالد -رحمه الله- يوصينا به كأنما هو من أهل الدار. كان يأمرنا أن نمرّ عليه، نطمئن على صحته، ونقضي له ما يحتاج، وأن نأتي به أحياناً إلى الملز في المناسبات وأوقات الوجبات، ليجلس بيننا، ويشعر أن له أهلاً لم ينسوه، وأن العمر مهما امتدّ به فله في هذه الدنيا من يأنس به ويأنسونه.

كنا نرى في عيني ذلك الشيخ الكبير (أبي ناصر) امتناناً صامتاً، وفي ابتسامته دعاءً. وكان الوالد يعدّ ذلك أقلّ الواجب، وظلّ على عهده معه حتى توفي ذلك الجار، وقد عاش آخر أيامه محاطاً بوفاءٍ صادق، لا بذكرى بعيدة.

ولم يكن وفاؤه مقصوراً على الرجال؛ فقد كانت لنا جارةٌ مسنّة، تقصده بهدوءٍ إذا احتاجت إلى قضاء حوائجها. كانت تثق به ثقة الأخت بأخيها، فيمضي لقضاء شأنها من غير منّة، ولا ضجيج، ولا حديثٍ يُشعرها بثقل. كان يرى في خدمة الكبير رفعة، وفي ستر حاجته أمانة. وظلّ على ذلك حتى توفيت رحمها الله.

ومن شواهد مروءته ونخوته مع جيرانه: ما كان في السيل والأمطار، أيّام التسعينات الهجرية بـ"غميته"؛ إذ فزع مع جيرانه حين داهمهم المطر، وكاد البيت أن يسقط بهم، فأخرجهم سالمين، غير هيّاب ولا متردد، حتى إذا اطمأن إلى نجاتهم انهار البيت، فآواهم في منزله، وأسكنهم أشهرًا، قائمًا بحق الجوار، ممتثلًا لوصية النبي ﷺ في الإحسان إلى الجار.

معرفته بالأنســـاب والعوائل وفراســـته في طبائع الرجال:

وكان -رحمه الله- ذا معرفةٍ واسعةٍ بالعوائل والأنساب، ولا سيما في الزلفي وما حولها من بلدان نجد، معرفةَ من عايش الناس، وخَبِر أحوالهم، ووعى تاريخهم وصِلاتهم. ومع ذلك كلّه لم تكن معرفته بابًا إلى خوضٍ أو طعن، بل كان شديد التحرّز، مستحضرًا نهي الشريعة عن الوقوع في الأنساب، وصيانة الأعراض، وحفظ مكانة الناس.

فلم يكن يذكر من ذلك شيئًا على سبيل تندر أو استحقار، ولا يفتح بابًا يفضي إلى غيبةٍ أو انتقاص، بل كان يعدّ هذه المعارف أمانةً لا يُتوسّع في بثّها، ولا يُتّخذ منها حديث سمر.

فإذا استشاره صادقٌ في أمر زواجٍ أو مصاهرةٍ أو شراكةٍ ونحوها، وألَحَّ عليه في طلب النصح، أجاب بقدر الحاجة، مقيّدًا ذلك بشرط الكتمان وعدم النشر، إدراكًا منه لحساسية هذه المسائل، وأن الكلمة فيها قد تبني بيتًا أو

تهدمه، وتصل رحمًا أو تقطعها. وكان يقول -بمعنى حاله- إن المؤمن مؤتمن، وإن النصيحة تُقدَّر بقدرها، ولا تُتجاوز موضعها.

وكان -رحمه الله- صاحب فراسةٍ عجيبةٍ في أحوال الرجال، يلحظ من السمات والقرائن ما لا يتفطّن له كثيرون، غير أنّ فراسته لم تكن مدخلًا للجزم ولا للإطلاق، بل كان يحبسها في صدره، ولا يصرّح منها إلا بما ظهر ظهورًا بيّنًا، وعلى سبيل الاستشارة الخاصة التي تتحقق بها مصلحةٌ راجحة.

وذلك لأنه كان يدرك أن كثيرًا من أحكام الناس مبنيٌّ على ظنونٍ وقرائن، والظنّ لا يُجعل أصلًا يُبنى عليه نشرٌ أو تشهير، فضلًا عن أن تُتداول به المجالس. فكان الحكيم العارف عنده هو من يزن الكلمة بميزان الشرع والمآل، فلا يتحدث في الأنساب والأحوال إلا حيث تثبت المصلحة، ويؤمَن الضرر، ويُصان السر، فرحمه الله رحمةً واسعة.

صبره -رحمه الله- وكثرة ثنائه على الله عزوجل:

ومن أعجب ما يُذكر في سيرته -رحمه الله- صبرُه الجميل، وكثرةُ ثنائه على الله عز وجل، حتى غدا ذلك خُلُقًا لازمًا له، لا يفارقه في عافيةٍ ولا بلاء.

فقد ابتُلي في آخر عمره بمرضٍ أقعده قرابة عشر سنوات، لازم فيها الفراش، وضاق عليه ما كان منفسحًا من أمره، غير أنّ هذا البلاء الطويل لم يُسمَع معه منه كلمةُ تسخّط، ولا لُوحظ عليه جزعٌ أو اعتراض، بل كان لسانه رطبًا بحمد الله، وقلبه معلّقًا برجائه.

ومن صفحات البلاء التي لا تُنسى، ما كان من ابتلاء العائلة بمرضٍ ألمّ بشقيقي الأخ عبد الرحمن أبو سامي رحمه الله، في وقتٍ كان الوالد رحمه الله فيه طريح فراش المرض. اجتمع الوجعان في بيتٍ واحد، وتكاثفت الغمامة، وكأن القدر أراد أن يمتحن الصبر في أصدق معانيه.

كان أبو سامي صابراً، يرجو ما عند الله، وكان الوالد -وهو على فراشه- يتألم لابنه، ولكنّه كان يردّد معاني الرضا، ويذكّرنا بحسن الظن بالله، ويعلّمنا بالصمت قبل الكلام أن المؤمن يُبتلى ليُرفع.

ثم مضى أبو سامي إلى ربّه، فكان الفقد عظيماً، والجرح عميقاً. ومع ذلك، رأينا من الوالد صبراً يدهش القلوب؛ دمعةٌ لا تعترض، وحزنٌ لا يسخط، وتسليمٌ لا يتزلزل. احتسب ابنه عند الله، وكأنما يقدّم قطعةً من قلبه قربان رضا، وهو يقول بلسان الحال قبل المقال: "**إنّا لله و إنّا إليه راجعون**".

كان ذلك الموقف درساً باقياً في الثبات عند الصدمات، وفي الفرق بين الحزن المشروع والجزع المذموم. لم يمنعه مرضه من أن يكون أباً صابراً، ومربّياً ثابتاً، يسكب في قلوبنا الطمأنينة ونحن نكابد الفقد. اجتمع عليه ألم المرض وألم الفراق، لكنه لم يفقد يقينه، ولم يضعف توكّله.

وهكذا خُتمت تلك الصفحة بدمعتين صابرتين: دمعة ابنٍ رحل محتسباً، ودمعة أبٍ بقي محتسباً. رحم الله عبد الرحمن أبا سامي، ورحم الوالد، وجمعهما في مستقر رحمته، وجعل ما أصابهما رفعةً في الدرجات، وتكفيراً للسيئات، وألحقنا بهما غير مفتونين ولا مبدّلين.

ولم يكن هذا الصبر وليدَ ساعته، بل كان ثمرةَ مسيرةٍ طويلةٍ من المكابدة والاحتساب؛ فقد مرّ -رحمه الله- في حياته بمراحل من شظف العيش وضيق ذات اليد، عانى فيها من قسوة البدايات، وتقلّب الأحوال، حتى عرف الكفاف صبرًا، وعرف السَّعة شكرًا، فلم تُطغه نعمة، ولم تكسره شدّة.

ثم توالت عليه مصائب الفقد، ففجع برحيل أحبةٍ من أقاربه، وتتابعت عليه الوفيات التي تُوهِن القلب وتثقله، فكان يتلقّاها بالتسليم، ويردّد معزّيًا نفسه ومن حوله أن الدنيا دار ممرّ لا مقرّ، وأن اللقاء عند الله. وزاد على ذلك ما لقيه من أمراضٍ ومتاعب جسدية في مراحل متفرقة من

عمره، فكانت حياته سلسلةً من الابتلاءات المتعاقبة، غير أنها لم تزدْه إلا ثباتًا ورضًا.

كنّا ندخل عليه في مرضه الأخير فنحسب أن المواساة له، فإذا به هو الذي يواسي غيره، يذكّر بنعم الله الباقية، ويهوّن من ألم البلاء، ويقول: "**الحمد لله نعيش بنعم عظيمة**" فكان يرى في البلاء باب أجر، لا باب حرمان، ويستحضر فضل الله فيما بقي، لا فيما فُقد.

وقد طال عليه المرض حتى غدا القعود وصفًا ملازمًا له، ومع ذلك لم يتبدّل رضاه، ولم يتغيّر ثناؤه، بل ازداد تسليمًا وطمأنينة، كأنما يترقّى في مدارج الصبر مع الأيام. فكان صبره صبرَ احتساب، لا صبر اضطرار، وثناؤه ثناء شاكرٍ خبر الحياة في وجهيها: ضيقها وسعتها، صحتها ومرضها، اجتماعها وفقدها.

وفي حاله يتجلّى معنى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [1]، إذ اجتمع له صبرُ البلاء، وصبرُ

(١) [الزمر: ١٠].

الفقد، وصبرُ المرض، فكان مثالًا للرضا الذي لا تزعزعه الحوادث.

رحمه الله رحمةً واسعة، فقد علّم بصبره قبل قوله، وكان في ابتلائه قدوة، كما كان في عطائه قدوة، حتى لقي ربَّه راضيًا مرضيًّا بإذن الله.

وفاته رحمه الله:

ثم حان الأجل الذي لا مردّ له، فانتقل إلى رحمة الله تعالى ورزقه الله حسن الخاتمة فكانت خروج روحه والقارئ حوله يقرأ قول الله عز وجل: ﴿**إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشر بالجنة التي كنتم توعدون**﴾[1] ، وكانت الوالدة -رحمها الله- عنده ثم خرجت وحضر الإخوة، الشيخ: أ.د. فالح ومعه الشيخ د. خالد بن إبراهيم الرومي -رحمه الله- والأخ قاسم -رحمه الله- والأخ فهد وخالد وبسام.

(١) [فصلت: ٣٠].

انتقل بعد حياةٍ حافلةٍ بالبذل والعطاء عصر يوم السبت وصُلّي عليه بعد صلاة الظهر من يوم الأحد، الثاني من شهر شعبان عام ١٤٢٩هـ، في جامع الراجحي بمدينة الرياض. وقد شهدت الصلاة عليه جمعاً كبيراً من المحبّين، ممّن عرفوا فضله، ولمسوا أثره، فازدحموا مودّعين، تلهج ألسنتهم بالدعاء، وتسأل له الرحمة والمغفرة، وأن يجزيه الله عنهم وعن المسلمين خير الجزاء.

رحمه الله رحمةً واسعة، وغفر له، ورفع درجته في عليين، وجعل ما قدّم في موازين حسناته، وأبقى له الذكر الحسن في أهله ومحبيه، وألحقه بالصالحين وجعل ما قدّم نوراً له في قبره، وبارك في ذريّته، وجزاه عن أهله ومحبّيه خير الجزاء، وجمعنا به في مستقرّ رحمته، في جنّات النعيم.

وفي الختام:

وأنا أضع القلم عند خاتمة هذه المنارات المضيئة من تاريخ الراحلين، وعلى رأسهم سيدي الوالد رحمه الله، فإنني أستحضر دعوةً طالما ردّدها، ووصيةً كان يوصينا بها في كل قولٍ نكتبه أو موقفٍ نرويه: أن نتحرّى الصدق، وأن نستغفر من الزلل، وأن نردّ الفضل إلى أهله.

فما كان في هذا السرد من صوابٍ وتوفيقٍ وإصابة معنى، فهو من فضل الله وحده، ثم مما علّمنا إياه أولئك الراحلون من صدق السيرة وحسن الأثر. وما كان فيه من خطأٍ في نقلٍ، أو سهوٍ في عبارة، أو قصورٍ في ترجمة حالٍ أو وصف مقام، فهو من نفسي والشيطان، وأستغفر الله منه، وأسأله العفو والمغفرة.

لقد حاولت أن أكتب بمداد الوفاء، وأن أستجمع ما يليق بمقامهم، غير أنّي بشر، والكمال لله وحده. فإن أصبتُ فذاك رجاء القبول، وإن أخطأتُ فحسبي أنني ما أردتُ إلا

إحياء الذكر الجميل، وتثبيت الأثر الطيب، ووفاءً لمن مضوا وتركوا فينا مناراتٍ لا تنطفئ.

أسأل الله أن يتغمّد سيدي الوالد، وإخواني وأحبابي الراحلين، برحمته الواسعة، وأن يجعل ما كُتب عنهم صدقةً جارية، وشهادةَ حقّ، وذكراً حسناً في الدنيا والآخرة. وأستغفره تعالى من كل تقصير، وأبرأ إليه من كل خطأ، وأفوّض أمري إليه، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

صورة للوالد -رحمه الله- وهو على فراش المرض

شكر وتقدير

بعد شكر الله جلَّ شأنه وتوفيقه، أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان لكل من أسهم في مراجعة هذه السيرة وإثرائها، ومن أبرزهم:

فضيلة شيخنا أ. د. فالح بن محمد الصغير، والشيخ خالد محمد الصغير، وأ. د. أمل بنت محمد الصغير، وكذلك الباحث والمؤرخ الأستاذ عبد الرحمن العليوي (أبو نايف)، على ما قدموه من مراجعة نافعة وإضافات قيّمة كان لها بالغ الأثر في إخراج هذه السيرة على وجهها اللائق.

كما أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ إبراهيم الصقعوب، على إجرائه لقاءً إذاعيًا مع الوالد –رحمه الله– والذي كان مصدرًا مهمًا استفدت منه في إعداد هذه السيرة.

فجزى الله الجميع خير الجزاء، ونفع بهم، وبارك في جهودهم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه

والحمد لله رب العالمين

وكتبه: صغيّر بن محمد الصغيّر

في ١٤٤٧/٩/١هـ

فهرس المحتويات

نسبه ومولده ١١

أثر الجد الشيخ فالح على الوالد رحمة الله عليهما ١٤

أثر والدته عليه رحمهما الله ٢٨

جد الوالد: عثمان بن صغيّر رحمه الله ٣٣

أعمام الوالد رحمهم الله ٣٧

نشأة الوالد -رحمه الله- وعلاقته بإخوته رحمهم الله ٤٣

أثر معلمه الأول عليه الشيخ محمد بن عمر الرحمة ٥٩

دراسة الوالد -رحمه الله- على الشيخ عبد الرحمن بن سعد
-رحمه الله- مبادئ العلوم في الزلفي ٦٣

سفر الوالد من الزلفي إلى الرياض لطلب العلم
و أثر ذلك عليه ٦٥

قراءته -رحمه الله- القرآن على الشيخ محمد بن سنان رحمه الله ٦٩

دراسته وتأثره بالشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله ٧٠

وصف الوالد -رحمه الله- لبيوت طلاب العلم في ذلك الوقت ٧٢

وفاة الجد وتأثر الوالد -رحمهما الله- ورجوعه للزلفي ٧٥

مرحلة الزراعة والإبل من حياة الوالد رحمه الله تعالى ٧٧

قصة زواجه الأول ووفاء صديقه المخلص سليمان بن حمد العتيق رحمه الله ٩٠

وصية الخالة هيلة بنت حجي الدخيل الشايع -رحمها الله- وتوكيل الوالد رحمه الله ٩٧

الوالد -رحمه الله- والعمل في البناء في الكويت ١٠٥

زواج الوالد بالوالدة رحمهما الله ١٠٧

الوالد -رحمه الله- والعمل في الاحتساب (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ١١٢

تأثر الوالد بشخصية الشيخ عمر بن حسن رحمه الله ١١٣

عودة الوالد للزلفي والعمل في دار الأيتام فيها ١١٧

مرحلة التجارة في حياة الوالد رحمه لله ١٢١

سيل مكة والطواف سباحة ١٢٨

وفاة العم قاسم رحمه الله ١٣٣

آخر ثلاثين سنة من حياة الوالد و انقطاعه للعبادة ١٤٢

مشاهداتي في صفات الوالد -رحمه الله- التي أدركتها ١٤٤

وفاته رحمه الله ١٦٢

الخاتمة ١٦٤

شكر وتقدير ١٦٧